الدكتور عبد السلام العجيلي

ساعة الملازم

مجموعة قصص

obeikandl.com

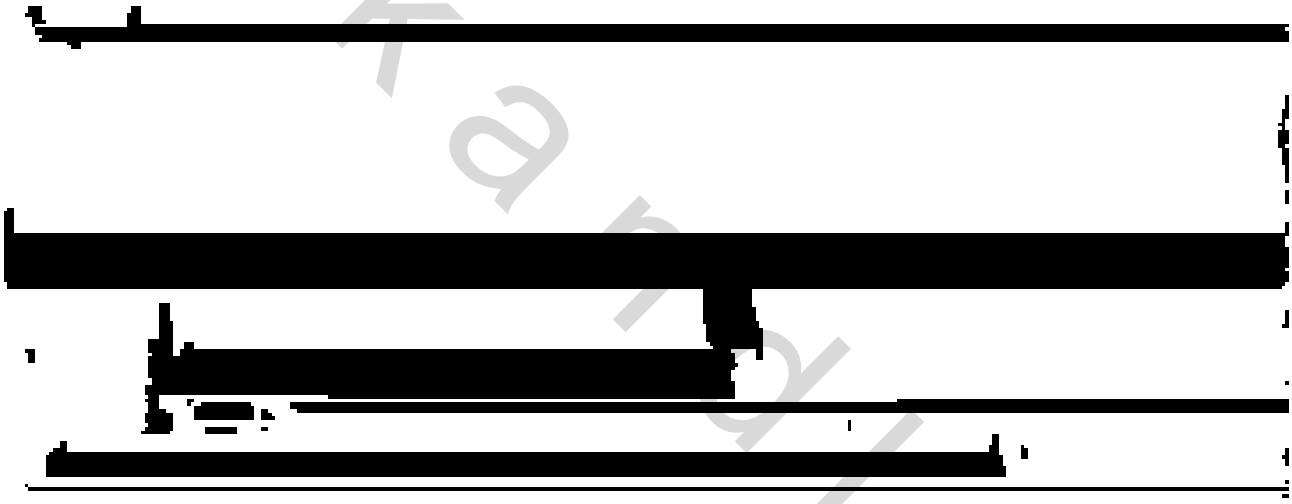

obeikandl.com

هارب من الموت

●

[منذ مدة جرت في منزل صاحب مجلة « الاديب » سهرة أدبية ضمت النائب السوري الدكتور عبد السلام العجيلي والشاعر الكبير الاستاذ عمر أبو ريشة والاستاذ ألبير أديب والاستاذ رياض طه .

وقد رويت خلال تلك السهرة بعض النوادر الواقعية فأوحت الى الاستاذ طه بفكرة . وما ان افضى بها الى الدكتور العجيلي حتى اتفق الكاتبان القصصيان على ان يضع كل منهما الفكرة في قصة يصوغها باسلوبه الخاص .

ويسر « بيروت المساء » ان تقدم هذا اللون الطريف من الأدب في هذا العدد . قصة « هارب من الحياة » للاستاذ رياض طه ، وقصة « هارب من الموت » للدكتور عبد السلام العجيلي] .

(قصة ذات وجهين - بيروت المساء العدد ١٠٧)
(١٤ آذار سنة ١٩٤٩)

— ١ —

بدأ الاستاذ بدر الدين يومه بداية سعيدة . فقد القى عندما وضه من النوم نظرة على المرآة ثم بصق عليها فجرّ ذلك شجاراً بينه وبين الست فلومينا صاحبة البنسيون الذي يسكنه . فهي تزعم

أنه رجل قذر لوّث مرآتها النقية ببصقة صفراء مما خالطها من بقايا التبغ الرخيص وآثار البلغم . اما هو فيدعي انه لم يبصق على مرآتها بل بصق في وجهه هو حين طالعه في المرآة . . أليس من حقه ان يبصق في وجهه ، ولا سيما اذا استصبح بمثل هذا الوجه من يوم يريد له ان يكون يوماً سعيداً ؟

وكان الاستاذ بدر الدين قد عول أن يكون هذا اليوم اسعد ايام حياته بأن يتخلص من كل همومه دفعة واحدة . لذلك فقد كان هناؤه يفوق الوصف وهو يردد بينه وبين نفسه الخطة التي قرر ان يطوق بهـــا حياته الشقية حتى لا تفلت من المصير الذي اراده لها . ولم يتمالك نفسه من اعجابه باحكام خطته فوضع اصبعه في احد الخروق التي كانت تزين قميصه البالي فوسعه حتى اتى على آخر القميص ، ثم لبس القميص كذلك كأنه يتحدى به الحاجة التي كانت تضطره الى ستر هـذه الخروق بالف وسيلة ووسيلة . وكانت فكرة التخلص من الحياة قد راودته مرات عديدة ولكن أساليب الخروج من الدنيا لم تكن تعجبه ، إذ كانت تافهـة في أنواعها وغير مضمونة في نتائجها . وما كان يعدل به عن الانتحار بالرصاص إلا خوفه من ان تطيش يده عن المقتل ، ولا عن شنق نفسه بحبل إلا خوفه من انقطاع الحبل تحت ثقله الذي لم يزل رغم صيام الفاقة مرموزاً اليه برقم محترم ، ولا من القاء نفسه في الماء إلا خوفه ان يتغلب عليه حب الحياة فيصيح ويستنجد ، فيصيبه من كل ذلك ما هرب منه ، وينضاف الى شقائه بحياتـــه شقاؤه بالسائلين والمستفسرين والقائلين والمؤولين . على أنه في هذه المرة

قد أعملَ فكره واحكم امره فوجد ان اقرب طريق الى الموت وأضمنها ان يجمع طرق الانتحار الثلاث هذه : يضع رقبته في أنشوطة معلقة بتلك الدوحـــة الضخمة النامية على جرف النهر الصخري ، وفي اللحظـة التي يرفع بها رجليه عن الجرف ابتدلى بالحبل ، يطلق الرصاص على رأسه . وهكذا يموت مضروبـــاً بالرصاص مشنوقـاً بالحبل ، واذا كان غصن الدوحـة دون ما يحتمل جثته فسيموت بحمد الله وفوق ذلك غريقاً بماء النهر البعيد الغور السريع الجريان !

وخرج الاستاذ بدر الدين من منزل الست فلومينا يحمل في حقيبته البالية الادوات التي اعدها في الليلة السابقة ليموت ميتته المثلثة : حبلاً غليظاً ومسدساً محشواً بالرصاص هو كل ما بقي لديه من آثار زعامته البائدة . وكان وهو في طريقـــه الى الجرف الصخري والدوحة المطلة منه على النهر يفكر بالحياة التي سيقهرها بعد لحظات وفيما ينتظره بعد الحياة . وكانت فضيلة الاستاذ بدر الدين الوحيدة الباقية له من مجموعة فضائله السابقة انه رجل مؤمن فـكان واثقاً من ان ما اقترفه في حياته من ذنوب سيجعل مصيره النار . وكان في قرارة نفسه راضياً بهذا المصير لامرين : اولهما انه ذاق من البرد في سنوات عديدة ما جعله يرى في جهنم نعيماً ، والثاني انه كان يعتقد ان الست فلومينا امرأة صالحة سيكون مصيرها الى الجنة ، وهو لا يريد ان يجتمع بالست فلومينا مرة اخرى ولو في الجنة ...

وعندما أصبح الاستاذ بدر الدين خارج المدينة وبلغ الجرف

الصخري فتح حقيبته وبدأ يعد ادواته . ولاحت له على مسافة قريبة جماعة من المتنزهين بين رجال ونساء قد افترشوا الارض قرب الضفة واخذوا يمرحون ويلعبون ، بينما انصرف بعضهم الى تهيئة ما يشبه ان يكون غداء لهم . واخذ وهو على الشجرة يربط الحبل الغليظ في احد الفروع القوية ، اخذ يفكر بما سوف يصيب هؤلاء القوم حين يبصرون جثته متدلية بعد دقائق من الشجرة فوق الجرف الصخري . ونزل عن الشجرة وجاء بصخرة وقف فوقها ، وبعد ان احكم وضع الانشوطة في عنقه قبض بيده اليمنى مسدسه وقربه من صدغه ورفع الاخرى محيياً فيها جماعة المتنزهين . وفي لحظة واحدة رفع قدميه عن الصخرة فتدلى منها جسمه فوق النهر ، واطلق الرصاص على صدغه ، فدوى صوته في اذنه اليمنى كأنه الأذن بدخول بدر الدين في الحياة الآخرة .

وفي اللحظة التي انطلقت فيها الرصاصة احس بدر الدين بان الضغط الذي شعر به في جزء من الثانية حول عنقه قد انقطع واحس بانه قد هوى من حالق ، فايقن بان ما حلم به في حياته قد تحقق ، وانه ، بعد ان مات ، في طريقه الى جهنم ..

— ٢ —

— اح ، ما ابرد جهنم !..

قالها بدر الدين لنفسه — نفسه الميتة بعد انتحاره — فقد شعر بان قشعريرة قد تناولت جسده من القمة الى الاخمص ، وان رطوبة مثلجة قد تسربت الى جسمه فتساءل ترى هل سقط في قدر من قدور الحميم في الجحيم ؟ ولكنه يعرف ان الحميم سائل

ناري ، ام لعل النيران التي خاضها في الحياة الدنيا تفوق كل نار في جهنم ؟ وقال لنفسه ـ نفسه الميتة ـ مالي وللتفكير ، ماذا أفادني التفكير في الاولى ؟ اولى لي ان اسأل الملكين عما اريده حين يأتيان ..

وشعر بدر الدين بضيق في انفاسه وثقل اخذ يجثم على صدره حتى يكاد يحطم اضلاعه ، فقال لنفسه ـ نفسه الميتة ـ : لا بد ان هذه ضغطة القبر لحقتني وانا معلق في حبل في الفضاء ، تبارك الله وصدق المرسلون ! .. ثم سمع لغطاً واصواتاً حوله فبشر نفسه بقدوم الملكين . وكان في كل هذا لا يرى شيئاً فقد كان اغمض عينيه في الحياة الدنيا قبل ان يطلق الرصاص على رأسه ، ولم يحاول ان يفتحها في الآخرة التي انتقل اليها . وشعر بان هناك ايدياً تجذبه وتجره اليها ، وسمع اصواتاً مختلفة بعضها بعيد وبعضها قريب ، ولكنه لم يفهم منها شيئاً اذ كان سمعه مشوشاً ، ام لعلها اللغة السريانية التي يتكلمها الملائكة ؟ انه لا يدري ولا يهمه ان يدري . وكل ما كان يعرفه انه شعر بان هناك من يحمل جسده ، ومن يرفع رجليه الى اعلى ويخفض رأسه الى اسفل ، ومن يضغط بذراعيه على صدره في حركات متتابعة ، ومن يمد جسده في النهاية ويتركه ممدداً . لا بد ان كل هذه تقاليد الملائكة في تلقي الاموات الجدد ، بل لعلها تقاليدهم في تلقي المنتحرين ؟! . وانتظر بعد ان هدأت الحركات أن يبدأوه بالسؤال والاستجواب .

وانتظر طويلاً . فلم يسمع إلا اللغط الذي حوله فحرك رأسه متململاً ، فتناهى اليه صوت رقيق يقول :

ـ من أنت يا مسكين ؟

ففتح عينيه في تململ ، فهاله ان يرى بدل الوجه المنكر الذي كان ينتظره محياً جميلاً على جسم فتاة . ماذا ، هل خابت ظنونه فدخل الجنة ؟! وادار عينيه ، وهو ممدد ، فيما حوله فلاح له ما أقنعه بذلك اول الامر ، فقد كانت هناك اشجار ونهر جار ، وخضرة وزروع ، ورجال ونساء ولكن شيئاً واحداً ايقظه من حلمه ، ذلك هو رائحة شواء نفذت الى خيشومه ، فقد كان قد شم هذه الرائحة وهو يضع ربقة الحبل في عنقه في الحياة الدنيا ، افلا تختلف رائحة الشواء في الدنيا عنها في الاخرى ، يعني في الجنة ؟ وتذكر لذلك شيئاً فمد يده الى عنقه فوجد الربقة حوله ، وتقصاها بيده فاذا لها ذيل قربّه من عينيه فاذا هو الحبل الذي علقه في عنقه قبل لحظات ، مقطوعاً !

اغمض عينيه مرات ثم فتحهما ، وتطلع فيما حوله بذهن قد انجلى ما كان قد ران عليه من شواش وحواس ذهب تبلدها وغدت مرهفة . ان ما يراه الآن حوله هو ما كان رآه قبل ان يطلق الرصاص على نفسه : فهؤلاء هم جماعة المتنزهين ، وهذا هو الجرف على بعد رمية حجر ، وتلك هي الشجرة التي علق نفسه بها ، واما الربقة التي في عنقه فما هي حبل من مسد ، ولكنها بقية الحبل الذي علقه في رقبته لينتحر به ! ... اذاً فهو لا يزال في الحياة الدنيا ، لم يمت ولم يسقط في قدر من حميم ، بل سقط في النهر !

وكان قد تحامل على نفسه وعلى ايدي من حوله من الناس وهو يدير في اسرع من البرق خواطر جمة في رأسه . كيف بعد

كل هذا الاحكام في تدبير الخطة يعود حياً ؟ ! ألم يشنق نفسه بحبل ؟ الم يطلق على رأسه الرصاص ؟ الم يغرق في النهر ؟ وبعد كل هذا يظل حياً ؟ وفجأة لمع الحل في رأسه فكاد يتهاوى على الارض من الجزع ، وكاد ينفجر صدره من الغيظ ، وكاد ينقطع نفسه من الضحك . الآن عرف كيف ظل حياً . ففي اللحظة التي اطلق الرصاص فيها على رأسه ودفع الصخرة من تحت قدميه انحرفت يده مقدار شعرة ، فبدلا من ان تنفذ الرصاصة في بافوخه اصابت الحبل فانقطع ، فوقع في النهر ، فانتشله المتنزهون .

– يرحم الله ابا القاسم الطنبوري ويرحم حذاءه . ما اشبه حياتي بذلك الحذاء ، كلما حاول التخلص منه ارتد اليه مرفقاً بالمزعجات ، حتى المجرى الذي القاه فيه رده عليه ...

هكذا قال بدر الدين لنفسه – نفسه التي عادت حية – وهو يفكر في الحياة التي عاد اليها والى التفكير فيها ...

– ٣ –

ولكن بدر الدين لم يفكر بعد ذلك طويلا . فقد شغله ما حوله عن التفكير بالتأمل والتطلع ، كان هناك شواء ونساء وعناية فائقة بشخصه . وكانت العناية باكثرها من الفتاة ذات المحيا الجميل التي فتح عينيه عليها بعد صحوته . كانت فتاة صغيرة القد مكتنزة الجسم كأنها بوجهها المورد وعينيها المدورتين دمية دبت فيها الحياة . وخيل الى بدر الدين وهو يصغي الى حديثها الهادىء اللين ويرى تقلب عينيها الحوراوين كلما بدأت الحديث انها فتاة طبعت على اعتزال الناس ، ولكن هذا الحادث الذي فاجأها اليوم اخرجها

عن طبعها فتخطت حدوده في حدبها عليه وعنايتها به . ورآها وهي تدور على الحاضرين واحداً واحداً تنزع من كل منهم جزءاً من ثيابه لتلبسه اياه ، فضحك في سره وخطر له ان ينادیها ويطلب اليها ان لا تتوهم فتحسب ان حياة الاستاذ بدر الدين تستحق كل هذا العناء ، واذا شاءت تفصيلاً فلتسأل الست فلومينا فتنبؤها بمعلوماتها التي من هذا القبيل . الا انه لم يتمالك ان نظر الى نفسه وهو متدثر بسجادة بالية آثرت نجوى ، وهي الفتاة الدمية ، ان تلفه بها خوفاً عليه من برد الربيع ، لم يتمالك نفسه ان شعر بشيء من الزهو ، ولاول مرة بعد عدد من السنين لا يذكره ، رضي عن نفسه واغتبط بها .

قال لها ، وقد مد يده من خرق في السجادة البالية :

ـ هات قليلاً من هذا الفجل لاعينك في تقشيره .

فلم ترفع نجوى عينيها عن كومة الفجل وهمست :

ـ هش !

ـ هل تخافين ان آكل منه شيئاً ؟

ـ هشش !

ـ ما معنى هش بالسريانية ؟

فرفعت رأسها ورمقته بنظرة متعجبة وهي تقول :

ـ سريانية ؟

ـ نعم . فقد كنت اظنني عدت الى الحياة الدنيا ، ولكن يظهر اني مت حقاً ، وان هذه هي الجنة التي اعدت لامثالي من الصالحين ، وانت واحدة من الحور العين ..

فانفجرت ضاحكة ، ولكن الاستاذ بدر الدين استمر في الكلام وقد عقد ما بين حاجبيه ليكسب كلامه هيئة الجد :

ـ في الحياة الدنيا كنا نضحك فنقول هاء .. هاء .. اما الذين يتكلمون السريانية فيقولون هيء .. هيء .. اليست السريانية لغتكم أيها الملائكة ؟

وكانت نجوى قد استلقت على الارض من ضحكها، وانتثرت حزمة الفجل من بين يديها . فلما سكت قليلاً قالت له :

ـ ما دمت خفيف الروح هكذا فلماذا اقدمت على الانتحار؟

فاصطنع هيئة المهموم وزفر زفرة طويلة وقال :

ـ اسألي فلومينا ...

ـ فلومينا من ؟ هل هي حبيبتك ؟ هل هجرتك ؟

فهز رأسه ان لا .

ـ هل .. هل ماتت ؟

فكرر الاشارة برأسه ان لا .

ـ اذن ماذا جرى بينكما .

ـ لا شيء . قالت اغسل ملابسك بنفسك ، فوجدت ان احسن طريقة لذلك ان انزل بها الى النهر فاكسب لنفسي مع غسيل الملابس حماماً كاملا .

فنظرت اليه نجوى بطرف عينها نظرة عاتبة ، وقالت له :

ـ الا تجدّ مرة واحدة ؟ هل تدري اني حين سمعت صوت الرصاص شعرت ، دون ان ادري بك او أراك ، ان احداً ، احداً عزيزاً ، ذهب ضحية تلك الرصاصة ، فصحت من كل قلبي

وبكل صوتي : يا مسكين .

ـ انت التي صحت بهذا ؟

ـ نعم . لماذا تسأل بهذه الدهشة ؟

ـ خيل اليّ وانا غريق ان احداً ناداني : يا بدر الدين ! وهذا ما جعلني اعدل عن الموت واعود الى الحياة . اذن فانت لم تناديني بل ناديت المسكين ، يا ستي الوداع !

ونهض بدر الدين يجر ذيل السجادة البالية وراءه متجهاً نحو النهر كأنه يهم بان يلقي بنفسه فيـــه . فلحقته نجوى وتشبثت باطراف السجادة حتى اجلسته وهو يتظاهر بانه لن يجلس ، وهي لا تتمالك نفسها من الضحك .

وكانت الجماعة قد هيأت الغداء وقام كل من افرادها بقسطه من العمل الذي وكل اليـه . فالتفوا حول بدر الدين ووضعوا امامه الشواء وحوله الفتيات ونجوى بجانبه . فتطلع في عطفيـه الملفوفين بالسجادة وفي من حوله من الجماعة ، فتنحنح وذكر في سره بيتاً لامرىء القيس كان من منسياته ، فتمتم به :

كان ثبيراً في عرانين وبـــله   كبير اناس في بجاد مزمـــل

فتبعته الجماعة بالبسملة ، وهم يظنونه فيما قرأه هامساً قـــد حمد الله وسمى باسمه !

ـ ٤ ـ

انتهت الجماعة من غدائها ، وانتهى معها بدر الدين فقام بعـد ان القى عن ظهره السجادة الباليـــة ، ونفض بقايا الشواء من حجره وتفرق الجميع عنه الا نجوى التي بقيت بجانبه . قالت له :

– هل اغسل يديك على الضفة ؟

فضحك وقال وهو يسبقها في طريق النهر :

– في بلادي يقولون : الذي تلدغه الحية يخاف من اثرها على التراب . نذرت لله ان ابقى وسم الكف اربعين عاماً ،او على الاقل ما بقي من حياتي . ولكن لا بأس ، ما قيمة النذر اذا لم يخرق ، فلنبدأ اليوم .

قالت له بصوت يفيض حناناً :

– اجبني جاداً مرة واحدة . ما الذي دفعك الى الانتحار ؟ انظر الى ما حولك ؟ الا ترى جمال الحياة ، ألم تشعر به ؟

– بلى ، شعرت بهذا الجمال مرة واحدة .

– متى كان ذلك ؟

فتوقف بدر الدين حتى صارت نجوى في محاذاته ، وتطلع اليها ، ثم قال :

– اليوم ، بل الآن .

فاطرقت برأسها ، وسبقته ساكتة الى النهر حتى انحدرت من الجرف الى الضفة واخذت تغسل يديها بقطعة من الصابون . اما هو فقد جثم قريباً منها وتطلع وهو واجم ، وجوماً صحيحاً في هذه المرة لا متصنعاً ، إلى شعرها الكستنائي الذي يدور في حلقات كانت تنوس حول جيدها ، وتنسدل خصلة منه على جبينها كلما داعبها نسيم الربيع العليل على شاطيء النهر رفت امام عينيها في دعة ونعومة . في هذه اللحظة شعر بدر الدين حقاً بجمال الحياة وعجب من نفسه كيف رضي ان يفارق هذه الحياة الجميلة مختاراً

إلى عالم كل ما فيه ظلام ورؤى مفزعة. وراح يسأل نفسه كيف عميت عيناه قبل الآن فلم ير في الدنيا نساء غير الست فلومينا ، أوَ لم تكن نجوى ولداتها من بنات هذه المدينة ؟ بلى كانت وكنّ ، ولكنه هو كان اعمى القلب . ونذر في نفسه ، نذراً صحيحاً هذه المرة لا دعابة ، ان يتمسك بجمال الحياة التي انتشى بجمالها اليوم ، فلا يتركها او يتنازل عنها لمخلوق لا مختاراً ولا مضطراً ، ومن يضطره الى ترك الحياة ؟ انه يشعر الآن بعد ان دفيء وشبع واسكرته نظرات نجوى وما تظهره من عاطفتها وما تخفيه ، انه يشعر ان بمقدوره مصارعة ملائكة الموت ومغالبة قوى الكون .

وتناول بدر الدين قطعة الصابون من يد نجوى وتقدم الى الشاطيء . ويظهر ان اثر الصابون من يد نجوى على طين الضفة الاملس جعل منه مزلقاً ناعماً ، فزلقت عليه قدم بدر الدين وانحدر جسمه وراء قدمه حتى غمره الماء . فلم يبال وهو في بحران نشوته بما اصابه بل استسلم فيما يشبه الغبطة الى الماء الذي ضمه . وانحدر ، انحدر عميقاً . فقد كانت في محل ما انزلق من النهر دوامة عاتية لا يظهر على سطحه منها اثر والقوة كل القوة فيها في اعماقه . وظل بدر الدين في انحداره لا ترى نجوى منه شيئاً ، وخيل اليه وهو في انحداره ذاك ان صوتاً قد اخترق اليه الاعماق يصيح به :

— بدر الدين ، يا بدر الدين ! . .

ولهذا الصوت وحده حرك بدر الدين يديه كمن ينتفض من

حلم ، ولكن تلك الانتفاضة تلاشت في الاعماق ، ولم يبد منها على السطح سوى فقاعة ، فقاعة ضئيلة ، سرعان ما انفجرت ، وبعد الانفجار تلاشت واستمر النهر في جريانه وكأن الساعات التي انطلقت حينذاك لم تتلاش بعد اصداؤها من جنبات ذلك الوادي الهادىء حيث نوّر الزهر وهب النسيم وضحك الربيع .

اما على الضفة فقد كانت نجوى ، نجوى المسكينة ، دافنة وجهها في كفيها ، تبلل خصلة شعرها المتناثرة بدموعها الحرى ، وهي تردد لنفسها ولماء النهر الجاري :

ـ مسكين ، مسكين انت يا بدر الدين ..

صندوق في الناي

•

كان لديّ صندوق نايات حفظته وديعة لصاحبي غالب الذي كان فناناً بوهيمياً ثم حطمه حب بائس وصاغه من جديد مهندساً بارعاً . وكانت لوثة الفن تتملك صاحبي هذا في فترات متباعدة من الزمن فيقصدني لينفخ في ناي من نايات الصندوق انغاماً سماوية كثيراً ما ذرفنا لها ، انا وهو ، الدموع او ملأت جوانحنا منها النشوة ، ثم يعود فيطبق الصندوق على تلك النايات ويتركها حبيسة لديّ . وفي ذات يوم تآزرت البوهيمية والهندسة على صاحبي غالب فهيأتا له سفرةً طويلة الى ايطاليا فجاءني يودع نايات ويعزف عليها واحداً بعد واحد حتى انتهى به العزف الى ناي ما اظنه نفخ فيه قبل امامي ، فلم يكن طرق سمعي قبل ذلك اليوم انين مثل انينه رقة ولا شجواً . وكان يعزف به عزفاً متصلاً فلا يلبث ان ينقطع بلحظات من السكون على غير ارادة من غالب نفسه ، فكأن للناي حنجرة يصيح بها وان تلك اللحظات لحظات يسترد بها أنفاسه التي تكاد تنقطع ، أو كأن ذلك الناي حي يشعر ، بل ويتألم ، وما تلك الوقفات الا جهشات الالم في وسط النغم . ولما

رويت لغالب شعوري الذي احسسته اثناء نفخه في هذا الناي على الخصوص ابتسم ابتسامة كئيبة وهز رأسه وقال :

ـ هكذا كان يعتقد ابي قلبك .

قلت له :

ـ وماذا كان يعتقد ابوك ؟

فضحك ضحكة فاترة وقال :

ـ ان للفنانين آراء غريبة قد لا يستسيغها العامة من الناس . ولعلك لا تعرف اني ورثت اغلب هذه النايات من ابي ، فقد كان عازفاً ماهراً على كونه هاوياً لا محترفاً . كان ابي يعتقد ان هذا الناي المصنوع من قصب هندي ناي مسحور يشارك عازفه الشعور ويتأثر بعاطفته .

قلت وانا ابتسم :

ـ اوهام الفنانين ! ثم ما هذا التقطع في انغام الناي ؟

فاشار صاحبي الى صدع متناه في الدقة وسط القصبة المجوفة وقال :

ـ سببه هذا الصدع . وهو يؤرخ حب ابي الاول . . . نفخ فيه في ليلة بائسة فأنّ معه الناي وتصدع .

قلت له : وانت ؟

قال : وانا كذلك ارخت حبي عليه بهذا الشق الضئيل ولا أملك كلما قارنت بين الصدعين الا ان ارثي لبؤس ابي في هواه .

فقلت مازحاً :

ـ يا لكم من امرة تفلق بعاطفتها الجماد . هات لاجرب اشجاني

في هذه القصبة ..

فضحك غالب وقال :

– لا تتعب نفسك ، لو نفخت فيها العمر لم تستجب لك . ولكن الصخر يتحطم بين يديك ، والانجم تترامى على قدميك اذا انت شقيت يوماً واحداً فأحببت ...

وفارقني غالب بعدها الى ايطاليا . امـــا النايات فقد ظلت حبيسة في الصندوق الى ان عرفت عبد الكريم . وكان هذا فناناً صغيراً ابيض الوجه مدوره واسع العينين السوداوين فاحم شعر الرأس ، يلثغ بالسين لثغة محببة . وقد احببت براءته ورقة الشعور فيه وهما صفتان ما كانتا متلائمتين مع وسط الصالات الـــتي كان يعمل فيها عازفاً للناي في تخومها . فعرضت عليه الصندوق ليختار ما يعجبه مما يحتويه فلما نفخ في الناي المصدوع راقه صوته فاختاره . ورغم اني ارشدته الى عيب هذا الناي ورويت له قصته فـــانه لم ينزل عن اختياره ان لم يزدد به تعلقاً . اما الصدوع فقد استخف بها وبمزاعم غالب حولها وانطلق يعزف عليه عزفاً ساحراً مستمراً لم لم اجد فيه ذلك التقطع الذي لحظته في عزف غالب وان وجدت فيه الرقة والشجو نفسهما ، فأيقنت ان هذا الفنان الصغير اقدر من ذلك البوهيمي الهاوي وارسخ منه قدماً في فنه وان كان الفن في دم غالب ورثه عن ابيه قبله .

وفرقت الايام بيني وبين عبد الكريم مرات وقاربت مرات اخرى . فكنت اجده في اسفاري يعمل في صالات الغناء والرقص في بيروت ومصايفها احياناً وفي دمشق وحلب احياناً اخرى .

وفي كل مرة ألقاه كنت استجيب الى دعوته فأحضر الليالي التي كان نجمها ، يسمو نايه بالحضور من صاحين وسكارى الى اجواء من النشوة رائعة ، فتنطلق مع صفيره آهات المغنيات ولياليهن وتتلوى على انينه اجساد الراقصات المشيقة العارية ، ويتأوه له الحفل في ختام كل مقطع منتشياً بشجو ذلك الناي المبحوح الانين وبروعة ذلك العزف وباندماج العازف المفتّن في عزفه حتى لكأنه كان يسكب فيه روحه . وكان الجـــو الذي يعيش فيه عبد الكريم ضيقاً ومحدوداً ولكنه كان يملؤه حتى لا فراغ فيه لغيره . فكأن الراقصات ذوات القدود الرائعة يرقصن له ، له وحده ، وكأن المعازف والاعواد والاوتار تبعٌ لنايه وتكملة لانغامه . امـا هو فكان في جوه غير منصرف الا الى فنه يتسامى ويتسامى معه في ذلك الجو نايه حتى لقد كدت اؤمن بما قاله لي غالب من ان هذا العود من القصب الهندي نـــاي مسحور يتأثر بعاطفة عـــازفه ويشاركه الشعور .

وضربت بيني وبين عبد الكريم الايام حتى لقيته بعد شهور في حلب . فلما رآني القى بنفسه عليّ ، فسألته عن حاله فقال لي « لا اجيبك حتى تحضر الليلة » وكان طبيعياً ان احضر سهرة الملهى الذي يعمل فيه لاسمع صفير الناي المصدوع بعد فراق طويل . وكان عبد الكريم كعادته في اول الليل وكذلك نايه ، كلاهمـــا كان مبدعاً . فلما تغلغل الليل واستخفت النشوة الرؤوس اعلن المعلن ان الدور للراقصة المبدعة « اقبال » ، وكأن ذلك الاسم كان به سحر سكنت له ضجة الملهى مثل عاصفة تلاشت في لحظة ، واطفئت

الانوار وصمتت الاوتار فلم يبق في الظلمة الا الناي المبحوح ينطق بنغم مديد بعيد كأنه منبعث من اغوار عاطفة عميقة . ودلف الى المسرح طيف ممشوق اهيف قد برقت في حواشي السواد الملتف به بوارق كأنها النجوم في ليلة ظلماء . وفجأة تموّج صوت الناي في صفاء وانجلى السواد عن جسد الراقصة وشعت الانوار كأنما انبعثت من ذلك الجسد الازهر الذي بدا عاريا الا شفوف لم تكن ثياباً بل غلائل من الانسام . في تلك اللحظة عاودت العاصفة ثورتها في جو الملهى ، وتعالى التصفيق والصياح مختلطة مع رنات الاوتار ونقرات الدفوف الحائة اقبال ، تلك الراقصة الفتانة ، على ان تنثر الفن في خطاها الرشيقة والتوائها الثعبانية .

من الذي يستطيع ان يقول صادقاً انه رأى في حياته جسداً في روعة جسد اقبال في تلك الليلة ؟ ومن الذي يستطيع ان يقول صادقاً انه رأى فتنة كفتنتها وهي ترخي شعرها الفاحم على شطر وجهها ، ثم تلقي برأسها الى الخلف في لفتة رشيقة فتسفر عنه وضاحاً فاتناً ؟ ومن الذي يستطيع ان يقول ان ناي عبد الكريم لم يكن تلك الليلة في الذروة وهو ينساب في انغامه انسياب اعضاء اقبال الفتانة في رقصها الرائع ؟ لم تكن اقبال ليلتئذ ترقص رقص الملاهي المتبذل ، بل كانت في تأوّدها تعرض على اعيننا اروع اوضاع الجسم الانساني حين يبلغ قمة الكمال في تناسقه . اما عبد الكريم فلم يكن ينفخ في نايه تلك التقاسيم المحنطة منذ اجيال من الموسيقى ، بل كان يرتل آيات الفن مجسداً جمال راقصته ونبوغ ما اتت به . ولاحظت لدهشتي ان صفير الناي المستمر كان يتقطع ، وعبد

الكريم ينفخ فيه ، تلك النقطعات التي سمعتها ذات يوم من غالب ، فتطلعت الى عيني العازف فرأيتها من مكاني غائمتين في سحابة من فتنة الراقصة المتلوية امامه . فخيل اليّ مرة اخرى ان عقيدة غالب وابيه بهذا الناي المسحور صحيحة وان نقطعات الناي هي جهشات العاطفة في صدر عبد الكريم . فهل احبّ عبد الكريم ؟!

اما عبد الكريم فقد نفى لي نفياً باتاً انه احب تلك الراقصة اللعوب التي ما كانت على فتنتها من صنف النساء اللواتي يعجب بهن او يمكنه حبهن . هكذا قال لي عبد الكريم الذي كان في نظري طفلاً غريراً ان لم يكن في سنه ففي نفسه وقلبه . وكنت في الايام المتتابعة التي مضت لي في حلب اسمع فيها عبد الكريم عازفاً واوى اقبال راقصة حائراً بين تصديق ما يقوله لي صاحبي بلسانه ، وبين تصديق ما يتراءى لي في عينيه ، وما يقوله لي نايه في تلك النقطعات التي اخذت تتزايد في زفيره حتى لقد تفقدته ذات يوم لارى هل امتد صدعاه الاولان ام اصابه صدع جديد !

وفي ليلة كانت آخر ليالي الفرقة التي ترقص فيها اقبال في حلب ، دعاني عبد الكريم الى ان احضر حفلة الختام قبل ان يتشتت العازفون والراقصات في انحاء الارض . وكان المحترفون من فناني الفرقة يقومون بواجبهم في تلك الليلة كمن يريد ان ينفض عن ظهره عبئاً ثقيلاً ليستريح بعدها . اما الفنانون منهم حقاً فقد كانوا يسكبون ارواحهم فيما يغنون او يعزفون ، ومن هؤلاء كان عبد الكريم . كان نايه صافي النبرات في اول الليل لا تقطعه وقفة ولا يعثر صفيره فكأنه نسي العالم وانصرف الى الانغام .

وظهرت اقبال متلوية تلويها الثعباني ، وعبد الكريم لا يزال في نشوته الفنية يرسل النغم فينساب عليه جسد الراقصة كأنه نهر من الالحون استسلمت اعضاؤها اليه . وفي حركة رشيقة التفتت اقبال التي كانت ترقص للنظارة ، التفتت الى عبد الكريم واخذت تتأود امامه وعلى نغمات نايه كأنما نسيت الجمهور فلم يبق في المقهى الا هو وهي : ارتفعت عيناها الى عينيه وانخفضت نظراته اليهـــا ، فلحظت حينذاك ان انغام الناي اخذت تتقطع ذلك التقطـــع المشجي الذي اعاد الى ذهني «غالباً» وما كان ابعده عني تلك الليلة . وكلما تثنت اقبال او تأودت مع النغم ازدادت جهشات الناي ، حتى لقد خيل اليّ انه كان يحشرج . وفي فورة الرقص واندفاع العاطفة ارتفع مرة واحدة صوت الناي في نبرة مشجية عالية ثم فجأة اجهش جهشة وسكت كأنما بح . وعبثـــاً كنت ارى عبد الكريم ، وعيني عليه لا تفارقه ، عبثاً كنت اراه ينفخ في نايه ، فلم يكن يرتفع له صوت . ذلك ان الناي ، ذلك الناي المسحور كان قد تصدع ، بل انفلق ...

ولما عاد غالب من ايطاليا بعد شهور عرضت عليه نايه المحطم وانا اعتذر اليه من ان العازف عليه وكنت اظنه ماهراً قـــد اخطأ التقدير فنفخ فيه فوق ما ينبغي . فتطلع اليّ صاحبي بنظرة الفنان القديم وقال :

— وهل تظنني اصدق ان رياح الاعاصير قادرة على ان تحطم نايا من القصب الهندي ؟ ليس الامر كما تقول يا صاحبي . انـــي لارثي لهذا العاشق الذي حطمت انفاسه نايي على حين لم تقو عاطفتي

ولا عاطفة ابي من قبلي ان تنال منه غير ان تصدعه صدوعـــاً لا تكاد تبين في انبوبه المستوي ...

واعاد اليّ غالب الناي المحطم فوضعته في صندوقه الى جانب نايات أخرى سليمة من التحطيم لانها لم تكن مصنوعة من قصب هندي مسحور ، ولم ينفخ فيها عشاق في هواهم معذبون ....

obeikandl.com

ليلة الفندق

•

ألقى يحيى الحقيبة من يده في بهو الفندق ثم أخذ يجر رجليه تعباً مكدوداً الى غرفة المكتب . وهناك انحط على كرسي في احدى الزوايا يتقبل ترحيب كاتب الفندق . والتفت برأسه الى زاوية بعيدة عن نور المصباح فوقعت عيناه على عينين ساحرتين ، عيني فتاة . كان وجه الفتاة جميلا ، جميلاً جداً ولكن عينيها كانتا شيئاً آخر . واحس بنظراتها المخملية تداعب ملامح وجهه وكأنها تدغدغه في تحبب . فلم يلبث ان اطرق ، ولم يلبث بعد ان اطرق أن قام مسرعاً الى غرفته وهو يحسّ بالنظرات المخملية تروح وتجيء على صفحة خده ومنحدر جبينه ، من تلك الغادة الفاتنة .

وكان يحيى منذ عشرين يوماً في رحلة هارباً من احلامه ، فقد كان مقيماً في قرية لا يجد فيها متنفساً لحيويته وشبابه إلا في الاحلام ، احلام مغامرات كتلك التي يقصها عليه رفاقه المقيمون في المدن الكبيرة . وفي ذات يوم عزم على أن يغزو المغامرات في عقر دارها ، فبدأ رحلته الى « البلاد » الساحرة حيث المراقص والفتيات الناهدات المتعطشات الى الهوى والشباب . ولكن ها

هو يعود بعد عشرين يوماً الى المدينة التي بدأ رحلته منها خاوي الوفاض لم تصطد شبكته ولا نواة لقصة يرويها لاصحابه في حفلات السمر . فلا مفر من أن يعود الى احلامه . وما أبدع صاحبة هاتين العينين بطلةً لحلم فتانٍ من احلام اليقظة يصوغه في اطار يتناسب وجمال وجهها وسحر نظراتها المخملية .

ووقف يحيى على باب غرفته يتطلع نحو غرفة المكتب، فرأى فاتنته تخرج منها وتسير في البهو متطلعة اليه ، متقدمة نحوه بقوام مشيق ليس افتن منه للعين ومشية راقصة وجب لها قلبه ، وخيل اليه انها ما خرجت من المكتب إلا لتحدثه ، لتعانقه . ولكنها مرت قريباً منه ، قريباً حتى احسّ هبوب نسمة من ريحها العطر على وجهه وبنظرتها المخملية تمس اهدابه ، ثم . . . دخلت الباب الذي يليه . اذن فسينام الليلة لا يفصله عن هذه الغادة الا جدار رقيق ، ثم انها تطلعت اليه تطلع من يريد ويهوى . ودار رأسه فوق ما كان دائراً من تعب السهر والسفر فدخل غرفته وانطرح على السرير . . .

نجمة سينما . نعم وأيّ امرأة اصلح منها لتكون نجمة سينما ؟ فلو كان مخرجاً سينمائياً لعثر على هذه اللقطة واحاطها بالجو الذي يليق بها . وهكذا طفق يحيى يحكم وهو يقظان ويزوّق قصة بديعة التفاصيل ، فما كان لاحد خيال أخصب من خياله في احلامه . لقد كانت في حلمه فتاةً لا نصير لها إلا هو ، احاطها يوماً بذراعه فالقت على صدره رأسها فتنسم منها عطراً ساحراً ، هذا العطر الذي هب على وجهه منذ قليل ، ثم رفعت رأسها اليه مضمومة

الشفتين – لقد تنبه الى ان لها شفتين كزهرة الجلنار! – فاحنى رأسه والتقمها بشفتيه في قبلة نهمة ..

وقام من سريره متلذذاً بحلمه ووقف على النافذة . وكانت النافذة باباً ينفتح على سطح كالشرفة تنفتح عليه كل غرف الفندق بابواب مماثلة ، اذا فتح بعضها كانت نوافذ واذا فتحت كلها فهي ابواب . فرأى على السطح ظلّ « هنـــد » . هكذا سماها بينه وبين نفسه – يروح ويجيء ويبدو ويختفي كأنها تتهيأ لتنام . وكان ظلها ساحراً مثلها ، دقيق التفاصيل ، مغرياً . وخيل اليه ، مثلما كان يخيل اليه في كل مرة يكون تعباً لم يستوف حظه من النوم في ليلة سابقة ، ان حلمه الذي صاغه منذ قليل قد مرّ به حقيقة وانه يعرف هذا القد الذي يرى ظلّه مرتسماً على أرض السطح ،يعرفه معرفة يقين ، فلما اطفىء الضوء فاسودّ ظل نافذة جارته عاد الى سريره حائر الفكر بين الحلم والواقع .

أطفأ يحيى الضوء في غرفته وأخذ ينصت الى زفرات السرير من الغرفة المجاورة ، وكلما سمع زفرة رقّ امام بصره الجدار الفاصل بين الغرفتين حتى أصبح وكأنه ليس له وجود . فرأى وهو مغمض العينين في الظلام المطبق على الفندق جسد هنـــد البديع ملتفاً بالغطاء الرقيق وكأنه تمثال يوناني نافر المعالم. وكان شعرها يغطي صفحة خدها واحدى يديها تستر نهديها . وزفر السرير زفرة اخرى فانزاحت الذراع عن النهدين فتكور احدهما فوق حافة الغطاء ، وتمطت ساقها المندمجة الوردية ثم انثنت معتنقة أختها ، ثم تلوت قائمـــة تتحدى شياطين الشهوة في جسم يحيى

المتعب ، وعلى هذه الصورة المغرية انحدر يحيى الى اغوار النوم العميق .

وفي منتصف الليل ، ام لعله كان آخر الليل ، فان يحيى لم يكن يعرف موقع وقته ذاك من الليل ، أحس النائم بما يوقظه عند باب الشرفة . فباعد بين اجفانه فرأى جسماً يحول بين عينيه وبين النجوم على باب الشرفة المفتوحة فيه نافذة . ثم رأى كفاً منيرة تندس في فتحة النافذة كأنها تبحث عن المزلاج لتفتح الباب بكامله . وكان الأجدر بيحيى أن يحسب القادم لصاً فيصيح أو يتهيأ ولكن قلبه خفق في جنون بين ضلوعه حين تبين قامة هيفاء تتزلق من الباب المفتوح ، انها هند . ومدّ يده في نزق فأحس بكفها رخصة تحتوي اصابعه المحمومة . اما جلدها فكان ينفث حرارة لاهبة كأن برد ليل الصيف لم يمر عليها ، اما جسمها فقد كان على امتلائه أخف من ريشة بين ذراعيه ومع ذلك فقد أنّ السرير حين جلست على حافته ، فلعلها أنّة نشوان .

... الليل مظلم والفندق ساكن والسرير يزفر وجداً بين حين وآخر .

ـ أنت فروي .

ـ وما أدراك ؟ ان ثيابي من تفصيل اكبر خياطي المدينة .

ـ ولكن قبلتك خشنة ، شفتاك محرومتان .

ـ . . . . .

ـ لا ، لا ، لا تزال مبتدئاً .

ـ ما أعظم خبرتكِ ، كم قبلتِ من الشفاه ؟

– غرتَ بسرعة ؟...

–... هند !

– من قال لك ان اسمي هند ؟ اسمي ليلى . بماذا تفكر ؟

– بالعنابا التي تقول : أم العيون السود بحضني نايمه ...

– قروي . افّ من هذا السرير ، انه يريد أن يفضحنا .

وكان السرير مظلوماً فما كان يملك الا الأنين ، انين حائر ، وانين مهتاج ، وانين محتج .

– هل انا في حلم ؟

– ولماذا لا ؟ جئتك في منتصف الليـــل كالطيف الذي يزور الشعراء .

– كنت احلم بك قبل أن أنام ، لم اكن احسب ان الاماني قريبة التحقيق هكذا .

– كثيراً ما تكون الحقيقة اقرب منالاً من الحلم ، لا ، دعني .

– من أين تعلمت هذه الفلسفة يا حبيبتي ؟

– من مدرسة الفرنسيسكان . قلت لك دعني .

وتململت الفاتنة فانحدر رأس يحيى حتى غرقت شفتاه في شعرها الوحف فمضى يتشمم طيبة باستغراق .

– سأذهب .

– لديّ كلام كثير أقوله لك ، ابقي .

– وماذا ينفع الكلام ؟

– اذن قبلات .

– انت لا ترتوي .

- هند !

- ليلى يا قروي ، تصبح على خير .

فهمس لها : تصبحين على خير . ولم يقم من سريره ، انما أخذ يتطلع الى قدها وهو في تراخيه اللذيذ يغبط ذراعيه أن التفت على خصرها الأهيف ، وصدره أن التصق على صدرها المتوثب . ونام ، نام سريعاً وهو يدير بقايا رضابها بين لسانه ولهاته .

*

وفي الصباح حمل يحيى حقيبته مسرعاً ، مسرعاً قبل أن تتبدد قصة ليلته من صدره وجوانحه . لقد ارتوى مائة عام من المغامرات . فلما أصبح قبالة غرفة المكتب وقعت عيناه فيها على العينين المخمليتين فاذا بهما كما كانتا أمس ناعستين تتطلعان اليه تطلع من يريد ويهوى . وكانت جالسة إلى منضدة المكتب في ثوب صباحي فتن : ساق على ساق ، وثغر جلّناري لم تشققه قبلات القروي ، ونهدان مشرفان هازئان بليلته واحلام ليلته . وسمعها تخاطب شخصاً بالتلفون وتقول :

- آلو ، من ؟ أنا هند ... هند !

وكان قد خطا نحو الباب فلما سمعها احس في صدره بمزيج من الغبطة والخيبة . وتوقف ، وكاد يرجع ولكنه اسرع فانحدر الى الشارع ، ومن الشارع الى طريق القرية حيث ستكون مغامرة ليلته رفيقة صدره فلن يقص على أحد قصته مع هند ، يعني ليلى ، ام لعلها هند ! ودار رأسه من جديد .

الحُبّ والأبعاد

•

« ان العالم ذا البعدين قد نصب لنا
شركاً وقعت فيه مداركنا وقوع الفأر
في المصيدة ... »

الكسندر تيخينشيك

كان لدى حلاق البلدة الصغيرة التي نشأتُ فيها صورة لفتاة جميلة تلبس ثوباً سماوي الزرقة وتحمل في كفها المرتمية في حجرها وردة كبيرة ، مطرقة برأسها ناظرة بعينها نظرة عجيبة . فكنت وأنا صبي ، اتأمل في تلك الصورة فيخيل الي ان الفتاة ليست في اطار على الجدار بل هي كعاب نابضة بالحياة جالسة على شاطىء البركة التي هي مصورة قربها ، وان تلك النظرة العجيبة في عينيها موجهة الي ّ ، الي ّ دون سائر الناس . وكنت اذا جلست في كرسي الحلاق ارى الصورة منعكسة في المرآة فاراها تبتسم لي ، فيستبد بي القلق : هل تلك ابتسامة أم هي تموجات المرأة السيئة الصقل تحرك ثغر الفتاة بالابتسامة الساحرة ؟! وشببت فابتعدت عن بلدتي الصغيرة ، ولكني كنت كلما عدت اليها ارى الصورة في

مكانها من دكان الحلاق قد اصفرّ ورقها وظل نغرها قرمزياً . فاذا تطلعت غص صدري بقلبي والتهب وجهي وانا ابصرها تنظر الي ، ذلك لأني كنت اشعر شعوراً اكيداً بان تلك الصورة كانت تملك من الحياة ، نوعاً غامضاً من الحياة ، ما يجعل لنظرتها معنى ولابتسامتها الموشومة بالاصباغ روحاً وحيوية .

هل كان شعوري ذاك مقتصراً على تلك الصورة ؟ لا اصدق اذا قلت لك نعم . الحق اني كنت امام كل صورة ، ومنذ صغري أشعر باني امام كائن حي . كنت ارد ذلك في البدء الى موهبة المصورين ثم الى خصوبة خيالي وفرط احساسي ، حتى هداني ما تعلمته الى مبعث هذه الملكة التي كانت تريني في الصور التي يحسبها الآخرون جامدة كائنات نابضة بالحياة ، فتبين لي ان ما كنت اقول لنفسي عنه انه وهم هو حقيقة ، او اذا اردت الدقة في التعبير ، هو وجه من الحقيقة كانت تتراءى لي دون غيري لاني كنت لأمر ما مهيئاً الى ان اراها من هذا الوجه بينما كان الآخرون : اصحابي وانت منهم ، وجيراني وابناء بلدي مهيئين الى ان يروها من وجـــه آخر .

إن عيني اليمنى هذه يا صاحبي من زجاج . انت والآخرون كلـــكم ذوو عينين وانا اعور ، ذو عين واحـدة . وان بينـكم وبيني في ادراك المرئيات اختلافاً يجعلني اعيش في عالم غير الذي تعيشون انتم فيه ، فبينما تعيشون انتم في عالم ذي ثلاثة ابعاد لا اعرف انا الا عالماً ذا بعدين . لا تهز برأسك هكذا مستخفاً بي ، فهذا ما يقوله لي ولك العلم . انك لا تدرك ان لمرئياتـك طولاً

وعرضاً وثخناً إلا لكونك تملك عينين اثنتين . فكل من عينيك ترسم للمرئي صورة في الدماغ ذات طول وعرض ، ولما كانت الصورتان غير متطابقتين لان بين العينين بعداً هو بقدر عين ثالثة فان الدماغ يدرك من هذا التفاوت في الصورتين واختلاف ابعادهما ان لما امامه بعداً ثالثاً هو الثخن . اما انا يا صاحبي فان عيني اليسرى لا تنقل لدماغي، منذ عرفت نفسي ، الا صورة يتيمة ليس لها من الابعاد غير الطول والعرض ، ككل صورة في اي كتاب. اني لا ادرك، إلا وهماً، ذلك البعد الثالث الذي تتحدثون عنه انتم معشر ذوي العينين ، فكل ما في الوجود عندي صورة مسطحة لا نتوء فيها ولا بروز . فارث لي يا صاحبي لاني اعيش في عالمي ، ذي البعدين، الضيق بينما تعيشون انتم في عالم طويل عريض عميق ، ذي ثلاثة ابعاد .

هل تضحك بما اقوله ام تعجب منه ؟ ليت لي ان ادخلك في عالمي كي ترى المرئيات والوجود بعيني . اذن لوجدت انه من البساطة بمكان ان تحيا الصورة فتنظر اليك وتبتسم . ذلك لانك في عالمك المثلث الابعاد تجد من المستحيل ان تدب الحياة في صورة على ورق لان كل حي ، في نظرك ، يجب ان يكون ذا ثلاثة ابعاد قبل ان تدب فيه الحياة . اما في عالمي فليس للحياة هذا الشرط . فانا الآن اراك كالصورة التي علقها حلاق بلدتي على جدار دكانه ، كلاكما خيال مسطح لا يملك الا الطول والعرض . ليس بينك وبينها ذلك العائق المستحيل اجتيازه ، ذلك البعد الثالث الذي تراه انت لا اراه انا يا صاحبي . هذا الذي اهتديت

به الى سر الحياة التي كنت اراها تدب في الصور التي يظنها ابناء العالم ذي الثلاثة ابعاد ميتة جامدة . وبغير هذا ما كان لي ان افهم كثيراً من اسرار حياتي ، ولا ان افهم قصة تلك الهندية ، حاملة الحزمة .

*

أية هندية ؟ انت لا تعرفها ؟ اذن سأقص امرها عليك .

دخلت ذات مرة الى مكتبي . فوجدت ان « محمد » وهو الغلام الذي يعمل فيه ، قد علق على الجدار المواجه لمقعدي صورة غريبة لا بد انه انتزعها من احدى المجلات . وكان محمد مولعاً بهذا الضرب من الصور ، قد ملأ جدران غرفته في المكتب بصور شتى لحسان الصفحة الاخيرة من المجلات . وكان يحاول بين الحين والحين ان يتسلل بصورة منها الى غرفتي فكنت احول بينه وبين هذا . اما في هذه المرة فقد كانت الحسناء التي علقها امامي تختلف عن زمرة حسانه الاخرى ، وكان فيها ، او في الصورة المنقولة عن صورتها الزيتية ، من الجد والغرابة ما رأيت فيه مبرراً لابقائها في موضعها الذي اختاره لها محمد من جدار مكتبي ، بين صورتين احداهما تمثل واجهة بناء ضخم على الطراز الفني وتمثل الأخرى مخططاً لآلة رافعة حديثة .

وكانت الصورة التي علقها محمد امامي تمثل فتاة هندية سمراء عارية الوسط تحمل على رأسها حزمة من السنابل قد دثرت اعلاها بصدار داكن ضم نهديها واعلى ذراعيها ، وشدت على حقويها العريضين مئزراً تجسدت تحت خيوطه معالم بدنها القوي نابضة

بالحياة والاتساق . اما ذراعاها فكانتا ممتدتين الى امام ووراء ، احداهما تضم الحزمة بمنجل تحمله كفها والاخرى تسندها من وراء بانثناءة بسيطة رشيقة على بساطتها ، وكأن تينك الذراعين في موضعهما من جانب الرأس الاسمر الجميل كانتا ترسمان حركة من حركات الرقص الهندي المقدس في احد معابد براهمـــا ، لا أنهما تؤديان عملاً قروياً لفلاحة في احد حقول الهند ، وهو حقل امتد في الصورة وراء حاملة الحزمة بمنظر عجيب والوان ساطعة بشمس الهند ، محترقة بنار الهند ، يكاد يفوق بروعته روعة ذلك المنظر الخلقي الذي ابتدعته مخيلة ليوناردو دافنشي لصورة الجيو كندا.

وانا شخصياً لا احب السمراوات من النساء ولا اعشق الهنود بين الشعوب ، ولكن هذه السمراء الهندية ربطت ناظري بها امداً طويلاً . فكنت ، ولا سيما في الليالي التي اخلو فيها الى نفسي في مكتبي اعمل او اقرأ ، ارفع عيني بين الفينة والفينة الى الجدار لاتأمل حاملة الحزمة . وكان يخيل اليّ احياناً انها من الحياة بحيث تكاد ان تتحرك في اطارها وتسير الى البيت الفنلندي المواجه لها . لقد كانت نظرتها اليه ، وصورتها جانبية ، ثابتة حتى كأن اقصى مناها ، مني هذه الفلاحة الهندية المحترقة بنار الشمس العمودية الاشعة ، ان تدخل هذا الكن الذي تكاد حجارته تتحدث باحاديث ثلوج فنلندا وجليد بحر البلطيك . وكانت تلك النظرة من الحرارة في درجة كنت اتساءل معها في لوعـــة متى تتحول اليّ لتحس بوجودي انا الذي اتطلع اليها ليـــل نهار وارقب نافد الصبر ، ارتسام ظلال اهدابها على وجنتها واتلاع جيدها في تطلعهـا .

كنت يا صاحبي قد ابتسمت بسيراً لما قصصته عليك من امري مع صورة الحلاق ، فاني احسبك لا تكتفي بالابتسام حين اقص عليك ما قد تسميه حماقات من آرائي وافعالي في خلواتي وانا انظر الى حاملة الحزمة . ولكني اعذرك ، وقد كنت مثلك قبل ان عرفت ان آرائي وافعالي تلك كانت بعض موجبات حياتي في عالم ذي بعدين لا تستطيع انت ان تروض خيالك على المقام فيه . وقد كان ذلك العالم المزدوج الابعاد نظرية في ذهني ككل نظرية في كتاب ، ثم انت حاملة الحزمة فكانت ، في بقية القصة التي اقصها عليك الآن ، هي البرهان على ان هذه النظرية صحيحة في الواقع مثل ما هي صحيحة في المنطق والتفكير .

لقد لازمت حاملة الحزمة شهوراً ، انا على مقعدي في مكتبي وهي في اطارها على الجدار ، اتأمل سمرتها وامتشاق قدها والانثناءات المعبرة لذراعيها في حملها حزمة السنابل . ثم اغلقت في ذات يوم مكتبي على ما فيه من اثاث وادوات وكتب وصور ، وعلى حاملة الحزمة ، وغادرت كل هذه البلاد حتى عدت اليها بعد عامين ، عامين كاملين .

*

حين عدت الى وطني بعد عامين كاملين لم اعد الى مكتبي ولا الى المدينة التي فيها المكتب ، ولكني عدت الى البلدة الصغيرة التي عشت فيها ، الى مزارع تلك البلدة اذا اردت الدقة في الرواية . ذلك ان ابن عمي عمر عرف حاجتي الى الاستجمام فدعاني الى ان اقضي ايامي الاولى بعد عودتي في مزرعته ، وكان فخوراً بتلك

المزرعة وبزراعة الارز التي ادخلها اليها . فاستجبت الى دعوته وقضيت الاسبوع الاول ناعماً بالجو الهادىء عنده ، وباقاصيصه عن مغامراته مع صواحبه من فلاحات القرى المجاورة ، وهي اقاصيص كنت الومه على المبالغة فيها وكثرة الحشو في سرده لها . اما حين كان ينصرف الى عمله فقد كنت اقضي الوقت في التجول بين حقول الارز او في مطالعة بعض ما اصطحبته معي من كتب .

وفي ذات صباح اقبل عليّ عمر لاثماً لي على كسلي وداعياً اياي الى ان ادفع ثمن الخبز الذي املأ به بطني كل يوم بالاشراف معه على حصاد الارز الذي تقوم به حصادات ميكانيكية وفلاحون تداعوا اليه من القرى المجاورة . ولم يكن بوسعي الا ان أنزل على رغبته ، فرافقته ظهر ذلك اليوم الى خيامه التي اقيمت على رابية عالية تنبسط تحتها حقول الارز ويتوزع فيها النهر الى جداول متلوية في بطء ومتسربة الى بطائح راكدة ينبت حولها الزل والبلان . وحينما انصرف عمر الى فلاحيه وحصاداته انطلقت وحدي ضارباً بين الحقول ، بعيداً عن الضجة والجلبة ، الى ان بلغت بطيحة واسعة من الماء في منخفض من الارض محجوبة عن عيون من كانوا في الحقل بمرتفع من الارض وسياج من قصب البردي الطويل . والى جانب هذه البطيحة الهادئة اضطجعت اتأمل مياهها الراكدة التي انعكست فيها زرقة السماء فبدت في ظلال النبات القائم حولها خضراء زمردية . ولم تكن من نسمة تجول في جو الحقل ، ذلك الاصيل ، فكان سطحها يبدو بالظلال المرتمية عليه والساكنة

دون اية تأمة كأنه صورة لمنظر طبيعي في اطـار ، وانصرفت الى تأمل تلك الصورة الجميـــلة بنظرة ساكنة مديدة . ولست اذكر كم لبثت كذلك ولا ماذا كان يدور في رأسي من فكر حين خيل لي فجأة باني لطول ما حدقت في منظر واحد قد اصابني توهم ، كأنه التوهم الذي يعتري قارىء المندل من طول تحديقـه في قطرة الحبر اللامعة في قعر فنجان . ذلك اني رأيت فجأة على سطح البطيحة الراكد المصقول صورة قد ارتسمت . كانت صورة مألوفة بل عزيزة الي ، انطلق فكري بجوب انحاء ذكرياتي في سرعة البرق مفتشاً عنها ، حتى ادركت بعد برهة لا ادري حسابها من الزمن ان ما ارتسم امامي ليس إلا الصورة التي خلفتها في مكتبي في المدينة البعيدة منذ عامين .. صورة حاملة الحزمة !.

وحقاً كانت حاملة الحزمة امامي على صفحة الماء الراكد كما كانت منذ تركتها في إطار على جدار غرفتي : محياهـا الاسمر ، ونظرتها الجانبية الفائضة حرارة ، وصدرها النأهد ، وذراعاهـا المنثنيتان المعبرتان عن حركة رقص مقدسة للاله سيفا ، واللتان كانتا تضمان حزمة مـــن السنابل . الآن ادركت ان السنابل التي تحملها تلك الحسناء الهندية هي سنابل ارز ، فالارز الذي ينبت في الهند قد نبت اليوم في مزرعة عمر ! وكنت اريد الالتفـات الى وراء لاتثبت هل هذا طيف استحضره وهمي من حاملة الحزمة التي خلفتها في مكتبي ام هي خيال لشبح قائم ورائي ، ولكني كنت اخاف مـــن أن اية حركة تعكر صفو ذلك السكون الرائع ، اياً كان مصدرها ، ستمحو الصورة المطبوعة بألوان

الاصيل على صفحة الماء ، وهي صورة سواء كانت وهماً ام حقيقة ، عبقرية بديعة .

واخيراً خرجت من سكون المسحور بالتفاتة مفاجئة الى وراء كأني كنت اريد بها ان افاجيء الطيف قبل هروبه . ولاح لي ان امامي وعلى بعد خطوات مني طيفاً هو طيف الهندية السمراء بلحمها ودمها واقفاً غير ملتفت الي يتطلع وحزمته على رأسه الى بعيد ، حيث كان عمر والفلاحون والحصادات . ما اعجبها من حادثة ! اكان المصور الذي رسم بالزيت صورة حاملة الحزمة قد اتخذ من هذه الفتاة القروية نموذجاً له ؟ كم من عجيبة مثل هذه في العالم كله ؟ وتحركت واقفاً من مضطجعي ، فانتبهت القروية التي لم تكن تشعر بوجودي قبل هذه الحركة . وبدا لي ان وجهها قد احمر فاكتسبت سمرتها المليحة بذلك الاحمرار لوناً ما كان الذه في البصر والفؤاد في الاصيل . واطرقت الفتاة بعنف اطراقة كانت تخالسني خلالها النظر في استحياء ، وهو ما لم تكن تفعله معي حاملة الحزمة حين كانت معلقة على جدار مكتبي ! وبدا لي ان هذه تختلف عن حاملة الحزمة في امر آخر ، فهي ليست عارية الوسط كتلك وان كان ذراعاها في سمرتها وامتلائها واستدارتها وفي حركتها المعبرة كذراعي حسناء الصورة .

وهمت الفتاة بان تخطو مبتعدة ، فاستوقفتها باشارة من يدي وقلت : — من اين انت يا فتاة ؟

فلم تشأ ان تتكلم ، ولكنها اشارت بيدها اشارة بعيدة الى مطلع الشمس ، فاحسست برعشة تتناول وجداني وقلت في نفسي : من

الشرق .. كذلك كانت حاملة الحزمة !

ـ ألك زمن طويل في هذه القرية ؟

فأجابت بصوت منغوم حيي : ـ سنتان .

ـ وما اسمك ؟

فترددت قليلاً قبل ان تجيب على سؤالي ثم قالت :

ـ اسمي ؟... اسمي هندية ..

ـ ماذا تقولين ؟! فاجابت ببساطة محيرة : ـ هندية ...!

*

وأبتُ الى خيام عمر على الرابية العالية . وهناك عرفت ان هندية وعجوزين من القرويات معها يُقمن في تلك الخيام حيث يعملن في سد حاجات الرجال الذين يشرفون عـــلى الحصادات وتهيئة مطعمهم . وكانت خطة عمر تقضي بالزامي بالمبيت معه في هذه الخيام مضايقةً لي ومداعبة ، فوجدت في المقام بالقرب من هندية بعض العزاء . والحق اني لبثت طول يومي الاول افكر في هذه الصدفة الغريبة التي جعلت من الهندية حاملة الحزمة وهندية القروية صورتين متماثلتين . ولما حاولت ان اجر عمر الى الكلام عن هندية تطلع الي بنظرة خبيثة وقال : ـ هل اعجبتك ؟

فلم املك الا السكون دفعاً لشبهاته وسوء ظنه .

على اني في الايام التالية لم اعد احسب لشبهات عمر وسوء ظنه حساباً ، بل اصبحت ارى نظرته الخبيثة في عينيه وبسمته الماكرة على شفتيه فأغضي عنها متجاهلاً وانا الذي كنت لا اصبر عـــلى بادرة منه الا واكيل له السخرية والتندر كيلاً ، ذلك ان هندية

كانت قد اعجبتني حقاً. لم تكن فتاة سمراء دعجاء العينين مكتنزة الشفتين لفاء القوام فحسب ، بل كان فيها من صفاء الروح وحلاوة النفس ما كنت احس معه ان روحي تشتاق اليها اشتياق الظامىء الى الماء الزلال . وكنت ظامئاً لا يروى ، فقضيت الايام العديدة في خيمة عمر كتابي في يدي مفتوح على صفحة لا تتغير وانا اتبع قدّ هندية في غدوها بين الخيمات ورواحها ، وفي انكبابها على عملها او تفرغها منه . انما هي فكانت في البدء تخالس النظر هذا الفتى المدني الذي قالوا لها عنه انه ذو ثروة ومكانة واسفار طوال ، ثم تجرأت فقابلت نظراتي بمثلها من عينيها الساحرتين ، نظرات صافية أليفة ترق احياناً حتى لتكاد تتأوه ، وتبسم احياناً حتى لتكاد تغرد ، وتعبر احياناً حتى لتكاد تنطق .

ومضت آلات عمر الميكانيكية تدور جاهدة في حصاد الارز ، حاصدةً معه ساعاتي الممتعة بالقرب من هندية . وكان لي في ذلك القرب سعادة لا تنغصها الا عين ورهاء لاحدى العجوزين كانت لا تفتأ تلاحقنا بنظراتها الشريرة . وكنت احياناً اضع يدي على يد هندية حين تدخل لبعض امرها خيمتي فأشعر انها تلبث لثوان مطمئنة كأنها مسافر بلغ غايته ثم تنفتل فجأة مرتعشة قلقة نافرة كغزال حال القانص بينه وبين المورد . وعبثاً كنت احاول حملها على ان تطيل مكثها في خيمتي او ان تسهب في كلامها حينما احدثها فتردّ علي . وفي ذات يوم ، بدت فيه حقول الارز جرداء عارية الا من كدوس من السنابل مكومة في نقاط متباعدة ، شعرت بان في عيني هندية حديثاً طويلاً لا تكاد نظراتها الناطقة

تفي به فصيحاً . كانت تروح وتجيء وتكاد عيناها ، عيناهـــا الدعجاوان ، تقولان لي : ان لنا معك حديثاً ، الا تفهم مانقول؟ فامسكت بيدها وقلت لها : هندية ، ماذا هنالك ؟

فتراجعت الى آخر الخيمة وقالت :

ــ لا شيء يا افندي . بقيت بقية من الارز لم تبلغها الآلات عند بطيحة الزل ، انا ذاهبة لحصادها قبل الغروب .

وكان ذلك موعداً ..

وعند بطيحة الزل التي رأيت فيها هندية حاملة الحزمة لاول مرة وجدتها هذا المساء . واتت الي كتلك المرة حاملة حزمة من سنابل الارز ثبّتتها على رأسها بمنجل في يدها فانحسر ردن الثوب عن ذراعها العبلة الحمرية السمرة المستقيمة الاستدارة مما ذكرني مرة اخرى بهذه الاعجوبة ، هذا الشبه بين الهندية حاملة الحزمة وهندية حاملة الحزمة ، كأنها تلك الصورة قد تركت اطارها وجاءت الي تسعى الى شاطىء البطيحة ، وخيل الي اني لو تفقدت مكتبي في هذه الساعة لرأيت الاطار اجوف خاوياً على جدار الغرفة كأنه سرير فارغ هجرته لتوها عذراء فاتنة . وجلست في مطمئن من الارض اصغي الى حديث هندية منتقماً لتلك الساعات الطويلة من الصمت ، صمتها في الخيام ، المزيج من البساطة والدل والخوف . وكانت عباراتها القصيرة مـــلأى بالحرارة تكاد تكون احياء لا الفاظاً ، حتى نظراتها كانت تفيض نشاطاً وحيوية . وضممتها اليّ فضمتني هي باحدى ذراعيها ضاغطة بيمناها منكبي ولكنها ظلت تقيم من كفها الاخرى حاجزاً بين شفتي وثغرها . قلت لها ، وانا

اعني صورتها المعلقة في مكتبي بعيداً :

ـ لقد عرفتك يا هندية قبل الآن .

فقالت دون تردد وبلهجتها الحلوة : ـ وانا كذلك .. قلبي يعرفك . قلت لها : ـ ولكنك لم تنظري الي . عيناك هاتان الساحرتان كانتا تنظران دوماً الى غيري . قالت :

ـ عين المرأة ليست في وجهها ، بل في قلبها ..

فأردت ان الثم الشفتين اللتين مرت هذه الالفاظ عليهما ولكنهما لم تمكني . قلت :

ـ هل تأتين الى البلد يا هندية ؟ ليست هذه البلدة بل المدينة الكبيرة حيث اقيم ..

فاستقامت من نصف الضجعة التي كانت فيها وقالت :

ـ المدينة ؟ لا المدينة ولا الديار هذه كلها . لو اني اعرف اني اراك بعد الآن ما جلست معك هكذا .

قلت متسائلاً : ـ واين تريدين يا هندية ؟

فسكتت برهة ثم قالت : ـ غداً او بعد غد ، يزفني ابن عمي ..

ـ ابن عمك ؟ اين يقيم ؟

فاشارت بيدها تلك الاشارة البعيدة الى الشرق . فسكت اسيفاً وبعد برهة صمت طويلة قلت لها : ـ هندية .. هل تحبينني ؟ فنظرت الي بعينها نظرة فسرها غروري بان نعم ! فقلت لها وانا بين المازح والجاد :

ـ اذن سنلتقي يا هندية ، ولن يستطيع ابن عمك ان يأخذك . سنلتقي في المدينة الكبيرة كما قلت لك .

قالت بلهجة حزينة ولكنها حاسمة :

– نحن ذاهبون بعيداً عنك ، بعيداً جـــداً . لن نلتقي بعد الآن .

وتطلعت الى الشرق بنظرة جانبية ذكرت لها تلك الصورة فوددت ان اسألهـــا اين « بعيداً » هذه ، اين يقع الشرق الذي ستذهب اليه ، اهو في الهند ؟! وصور لي وهمي ان عينيها كانتا تفهمان مايدور بخلدي ،وان نظراتها العميقة الحزينة تجيبني :نعم .. نعم ..

وفي ضوء آخر اشعة الشمس الغاربة تفلتت هندية من بـــين ذراعي ثم رفعت حزمتها الى رأسها وخطت بقدمها اللدن الرشيق مبتعدة عني الى حيث الخيام ، تاركة اياي للحسرة والظلام .

*

وانجاب الظلام في صباح اليوم التالي ، ولكن الحسرة ظلت ترين عليّ . ذلـــك ان هندية ذهبت الى الشرق ، والشرق أبعاد وآماد . وكنت في حيرة أأضحك من نفسي على تعلقها بهذه الفتاة القروية التي خالطتها اياماً قلائل أم اشفق عليها من هـذه العاطفة الغريبة التي غمرتها . وكانت ذكرى مجلسي الاخير اليها في انوار الغروب بجانب بطيحة الزل مزيجاً لي من الألم واللذة ، والحسرة والهناءة . وكنت من ادمان التفكير والتذكر أكاد اخلط بين الواقع والخيال وبين ما حدث حقاً ، وما كنت ارغب ان يحدث ، وما كنت اخاف حدوثه . وكان يخيل اليّ في الحالات التي كنت اتذكر بها شخص هندية الممشوق وحركتها الهادئة وصمتها اني لم

اعش تلك الايام الى قرب كائن حي بل الى قرب الهندية السمراء حاملة الحزمة التي لم تكن غير آية فنية رسمتها ريشة فنان عبقري. اما في اللحظات التي اتذكر فيها حرارة ذراع هندية وهي تضمني، وحر انفاسها وهي تميل عليّ فقد كنت اعتقد ان راقصة هندية من راقصات المعابد كانت تضمني اليها في احدى لحظات عبادتها التي اقدس طقوسها ان تهب جسدها في حب آلهتها . وظلت هـــذه الافكار تروح وتجيء في رأسي وقلبي حتى لقد وقر في خلدي اني حين اعود من مزرعة عمر الى مكتبي في المدينة الكبيرة لن أرى صورة حاملة الحزمة في الاطار بل سأجد هندية ، لحماً ودماً ، على الكرسي المريح المواجه لمكتبي . الا اني حين ذكرت ما قالته لي هندية من انها ومن هي منهم ذاهبون بعيداً احسست بـأن كفاً قاسية تعصر قلبي، ففضلت معها ان اعود الى الواقع الذي لا لبس فيه ولا ابهام . قلت لنفسي: لا، ليس بين الهندية وهندية إلا صلة الشبه ، وليس لتخيلاتي ظل من الحقيقة . فلو صحت تلك التخيلات لفقدت حتى العزاء الذي ظل لي ،اذن لما وجدت من احد عـــلى الكرسي المريح امامي بل لوجدت مكتبي خاوياً من الروح المالئة جوه سحراً وحرارة، ولوجدت الاطار على الجدار أجوف فـارغاً كطلل متهدم هجره سكانه ...

... ثم ماذا اقص عليك يا صاحبي ؟... انت يا ابن العالم ذي الابعاد الثلاثة ؟ هل تستطيع ان تفهم كيف تكون الصور احياء والاحياء صوراً في عالمي ذي البعدين ؟... لقد عدت الى مكتبي اترقب ان ارى الهندية في فتنتها الفنية التي طال عنها غيابي. وفتحت

لمكتب في خشوع الفقير الهندي في معبد بنارس ، اطأ الارض برؤوس اصابعي : فؤادي مملوء بتهاويل الحب ، ورأسي دائر من البخور الذي احترقت به ساعات هنائي . وتطلعت الى الحائط امام مكتبي فوجدت الاطار الذي ضم فاتنتي السمراء . وجدته ولكنه كان خالياً ... فلقد اختفت الصورة ، صورة حاملة الحزمة ...

اين ذهبت حامـــلة الحزمة الهندية السمراء ؟ كيف هجرت طارها ومتى هجرته ؟ اتراها غادرت مكتبي منذ عـامين ، منذ هبطت هندية مزرعة عمر ؟ ثم اين ذهبت ؟!. اسئلة لم اجد لهـا حلا ولم يسترح وجداني الا حين قلت لقلبي في استسلام اليائس :

ـ انها هـي ... الهندية هندية ... لقد ذهبت بعيداً ... الى الشرق ...

الكمأة والكينين

•

صديقي الدكتور عبد الحليم ذو عقلية خاصة وطريقة في العيش والنظر الى الحياة فريدة في بابها لا تتفق في حال مع موهبته من الذكاء ، ومكانته من العلم ومنزلته في المجتمع . وقد كانت تلك حاله منذ كنا ندرس الطب سوية . وهو اليوم يقيم في بلدة صغيرة . او على الاصح ، يقيم في قرية كبيرة وسط الصحراء مع ان ابواب المدن الكبرى مفتحة امامه ، ولكنه يؤثر العمل في الشظف والحرمان استجابة لدوافع عقليته الخاصة دون تذمر او شكاة ، بل انه ليصبغ حياته الجافة بالوان بهيجة من المرح ويتلمس في كل ما هو مؤذ وجاف دواعي الابتسام والضحك فأكاد احسبه ، من خلال رسائله التي تصل الي ، يعيش في جنات النعيم . ومنذ اقامته في قريته تلك وهو يكتب إلي عن منافس قد حيره وكاد ان يقلق مضجعه ، لو ان في الكون ما يقوى على اقلاق مضجعه . ولم يكن منافسه طبيباً بل كان ممرضا تعلم زرق الابر وتحضير القطرات في عيادة احد اطباء المدن ، ثم سكن هذه القرية قبل مجيء الدكتور عبد الحليم فجمع ثروة من تطبيب ابنائها وابناء العشائر الضاربة

اطنابها حولها . ولم يوقف مجيء عبد الحليم القرية وافتتاحه عيادته فيها من نشاط فهد، وهو الطبيب الدجال ، او يحدّ من جرأته في المداواة وابتزاز المرضى . وعبثـــا كان صديقي يحاول استعداء القانون عليه او اقناع الناس بجهله . فقـد كانت له ، لفهد اعني ، طريقته الخاصة في تدبير اموره بصورة ان كل محاولات الطبيب القانوني لم تفعل معها الا ان زادت شهرته ذيوعا وطبه نفاقا. وفي رسائل عبد الحليم الاخيرة اخبرني بانه يوشك ان ينتصر على خصمه انتصارا ساحقا اذ اكتشف جريمة من جرائمه تسير على قدميها ، فقد عالج فهد رجلا من القرية اسمه سلمان من مرض الم به ، وكان من جملة علاجه له ان حقنه ابرة في وركه الايمن ضلت طريقها، ولا بد انها كانت حقنة بمحلول الكينين ، فاصابت عصب وورك الرجل فشلت رجله . وقد عزم صديقي على تقديم هذه الجريمة للقضاء ، لا لقضاء الدولة، فلم يكن عبد الحليم مؤمنا بسطوته وجدواه في تلك البقعة النائية ، بل – وتلك احدى نواحي الشذوذ في عبد الحليم – للقضاء البدوي النافذ في تلك القرية والعشائر حولها ، وانه بهـذا واثق انه سيغرّم فهداً مبلغا كبيرا من المال، وانه سيكشف عن دجـــله ويقضي عليه القضاء المبرم . ومنذ يومين وصلتني رسالته الاخيرة وهي تصف المعركة التي دارت رحاها بينه وبين فهد في ساحة قضاء القرية والى اي شيء انتهت . وانا انقل هنا رسالته بنصها ، بعد مقدماته التي الفتها ، قال :

كم تمنيت لك ان تحضر هذا الطراز من المحاكمات في قريتنا ياعزيزي، اذن لسرّك ان لا ترى في قاعه المحكمة احدا من اصحابنا الغربان

السود ، اولئك الذين يجعلون همهم خلق المشاكل ليبرهنوا للناس انهم قادرون على حلها . بالطبع لم يكن في محكمتنا قوس يجلس وراءه القاضي ولا لوحة فوق رأسه مكتوب عليها « العدل اساس الملك » . وانما كان قاضينا الشيخ نايف امرءا متواضعا اقتعد الارض وكل بضاعته من الوقار تخليله لحيته باصابع يديه المخنّمتين . اما سلمان فقد جعل همه ان يروح ويجيء جارّا برجله المشلولة في قاعة المضافة الغاصة بالحضور ليظهر للناس كم هي فادحة عاهته التي نزلت به من ابرة فهد وليستدر عطفهم عليه . ولكني لا اعتقد انه اثار من اشفاقهم بالقدر الذي اثار من تقززهم وقرفهم . تريد الحق؟ لو رأيت انت سلمان لقبّلت اليد التي شلت رجله . لو رأيته ، ولا اراك الله مكروها ، لحكمت عليه أنه يمثل حثالة مخلوقات الله خسة ودناءة ، بعينيه المنحرفتين الضيقتين ، وانفه الاعقف الهزيل ، وفمه الذي كأنه فم غار افعى . ولكنه مع ذلك كان سلاحي الوحيد ضد فهد ، وقد ضمنت له ان احصل له من المشعوذ على دية رجله وضمنت لنفسي ان افضح به دجله ، فكنت اتجشم راضيا النظر الى وجه سلمان الكئيب ، واتحمل خسته في سبيل القضاء على فهد .

ومهما يكن من امر سلمان فانه هو الذي بدأ الكلام امام الشيخ نايف ، وهو عارفة القرية وقاضيها في العرف العشائري . فروى بصوته الذي يشبه مواء هر مخنوق ، قصته التي ذكرتها لك في رسالة سابقة . ولم يفت الخبيث وهو يطلب من الشيخ نايف الانصاف ويحمله امام الله تبعات الحكم الذي سيصدره ، لم يفته ان يرفع يديه الى السماء في حركة مسرحية لم ادرّبه عليها فيما درّبته

عليه، ولكنه كان ، والحق يقال،لا يقل عني معرفة في الضحك على ذقون الجمهور ويفوقني قدرة على استدرار عطفهم. وبعد ان جلس سلمان جاء دوري في الكلام كشاهد ، فاتخذت هيئة العالم العلامة ومضيت ابسط امام العارفة والحضور معلوماتي،وابين لهم كيف ولماذا نزلت برجل سلمان هذه العاهة . ولو انك حضرت شهادتي تلك لرشحتني لاحتلال مكان سعيد افندي معلم مدرستنا القديمة الذي ذهب عقله لانهماكه في تدريس اطفـــال السنة الاولى – لرشحتني للتدريس ياعزيزي لا لذهاب العقل وذلك اني شرحت لاولئك البسطاء بكل وضوح كيف ان عصبا وركيا كبيرا هو الذي يحرك الطرف السفلي في كل انسان، وكيف ان هذا العصب يمر في الالية في منطقة خاصة يتحاماها الاطباء حين يحقنون الادوية فيها . اما فهد ، هذا الدجال المشعوذ الذي يتعاطى ما لا حق له بتعاطيه والذي يقـدم على ما ليس هو باهل للاقدام عليه ، فانه لجهله واجرامه قد حقن سلمان بحقنة من الكينين ، سم الاعصاب الزعاف ، في المنطقة التي نتحاماها نحن الاطباء ، فامات العصب وماتت رجل سلمان اليمنى بعده . وصحت بالحاضرين :

انظروا الى رجل سلمان ! كلكم معرضون لان تكونوا مثله يوما ، ما دمتم تسلمون اجسادكم لا مبالين الى من يسم اعضاءها ويميت اعصابها ويضع الداء فيها موضع الدواء .

وسكت بعد كلمتي هذه فخيم الوجوم على الحاضرين ، وران على القاعة سكون عميق لم يزعقه الا تمخط الشيخ نايف الشديد . ولم يزعجني تمخط الشيخ نايف لانه كان دليلا على ان عينيه قد ذرفتا

دمعا سال في قناته الدمعية وصب في انفه فهاج مخاطه ، ومعنى ذلك ان الشيخ نايف ، القاضي العارفة ، قد تأثر بما قلته . ولذا فقد سررت انه تمخط وانه تمخط بقوة ، وجلست في مكان استمع لفهد في دفاعه عن نفسه .

تنحنح فهد ثم سعل قبل ان يبدأ دفاعه . وكان يعرف اني انا لا سلمان غريمه في الحقيقة ، لذلك فقد توجه الي بالكلام وقال :

— سامحك الله يا بني . سامحك الله ! اني في سن ابيك ولكني لست قطرة من بحرك . واذا كنت قد جربت الايام بعدد شعر رأسك فاني واثق بانك قرأت من الكتب بعدد شعر رأسي (وكان الخبيث يعني ما يقول فقد كان اصلع ليس في رأسه شعرة واحدة) ومع ذلك لو عرفت يا بني هذا الرجل — وهنا اشار الى سلمان — لو عرفته معرفتي ومعرفة اهل القرية لعجبت ان يقتصر الله على شل طرف واحد من اطرافه ، طرف واحد فحسب .

قلت : اهو الله الذي شل رجل سلمان ، ام ابرتك التي اماتت العصب يا فهد !

فاجابني بسرعة : قل كلٌ من عند الله . لو سألت احداً من اهل هذه القرية قبل ان تحضر هـذه المقاضاة لانبأك لماذا شلت رجل سلمان .

قلت له متهكما :

— اعندك سبب غير الذي ذكرته انا !

قال : معاذ الله . ولكن وراء كل سبب مسبباً يا سيدي ، اسأل سلمان متى حقنته بهذه الابرة ؟

قلت : منذ عامين .

قال فهد : — نعم منذ عامين . في السنة التي يدعوها الناس هنا سنة الكمأة لكثرة ما جمع من الكمأة فيها. في تلك السنة كان صاحبك سلمان هذا يجول بين مضارب البدو في البراري ليشتري منهم ما جمعوه من الكمأة . وكان له ميزانه الذي يزن به ما يشتريه منهم . ولكن لم يكن يحمل وزناً يضعه في كفة ميزانه هذا بل كان يضع في الكفة قدمه اليمنى ويقول لمن يشتري منهم من عجائز البادية او صبيانها الاغرار ان رجله معروفة الوزن وانه قد وزنها في البلد فوجدها تعادل ثلاثة ارطال . فكان عجب عملائه المضطرين الى تصديقه ، لا ينتهي حين يرون ان كل ما التقطوه من كمأة لا يعدل ثلاثة الارطال التي يزعم سلمان انها زنة قدمه اليمنى . نعم يا بني القدم اليمنى لصاحبك سلمان هي كانت حجر الوزن في كفة ميزانه ... هذه القدم التي تراها الآن مشلولة لا قوة لها ولا حيل .

لقد جاءني بعد جولته تلك وقد ملأ جيبه من مال العجائز والصبيان الاغرار ، جاءني يرعد من الحمى فحقنته في إليتيه بابر من محلول الكينين كما قلت انت يا بني ، وحقنته في مكانين متشابهين في في كل من الأليتين فلماذا سلمت رجله اليسرى وشلت اليمنى ، اليمنى التي كان يضعها في كفة الميزان ويقول للبسطاء ضعوا كما كم في الكفة الاخرى فان قدمي معروفة الوزن ؟ أليست هي مشيئة الله المنتقم العادل الذي كان رقيباً على سلمان وهو يضع قدمه في الميزان المقدس ؟ أليست هي مشيئة الله التي قضت على رجله

ان تشل ؟ اهو ذنبي يا شيخ نايف ان ينتقم الله من غشاش أثيم؟ اسألكم بالله ايها الحاضرون هل قلت إلا الحق الذي تعرفونه جميعاً ؟

فسرت لسؤال فهد همهمة في قاعة المضافة وحول الشيخ نايف الذي ظل صامتاً . وكانت همهمة تؤمن على ما قاله فهد الذي اخذ يهدر كالسيل في كلامه . اما أنا الذي ما كنت اعرف شيئاً عن قصة قدم سليمان فقد كاد يتملكني الضحك وانا اتصوره يضع قدمه في كفة الميزان والعجوز البدوية تفرغ في الكفة الاخرى كيسها فلا ترجح بل تقول هل من مزيد . ولكن المجال لم يكن مجال ضحك . فقد تبين لي أني على وشك خسران المعركة ، فقد كاد فهد يدخل في نفوس الحاضرين ان رجل سليمان اليمنى قد شلت لأنها كانت اداة الغش في تجارته ، فقد رفع صوته مرة ثانية وهو يقول :

ـ ان حدود الشرع تقضي بقطع يد السارق يا شيخ نايف ولقد تعطلت حدود الشرع في ايامنا الفاسدة هذه ،أيام آخر الزمان ، ولكن الله جل وعلا سريع العقاب وقد شاء ان يطبق حده على رجل سليمان فشلها وكانت ابرتي هي آلة الحد ، فهل اجازى انا على مشيئة الله وقدره ؟

قلت لنفسي : وي ! هذا فهد قد جعل من نفسه ولياً من اولياء الله !... وتهيأت للرد عليه ولكن عيني وقعت فجأة على سليمان وهو منزو في جلده في آخر القاعة ، فثار في نفسي ما كنت أشعر به نحوه من نفور واشمئزاز ، وزادت هذه القصة التي سمعتها الآن من احتقاري له . وتمثلته وهو يلوح برجله العرجاء امامه

في نصف دائرة في حركة بشعة سمجة، فحدثت نفسي ان هذه العاهة قد نزلت منزلها اللائق من جسد هـذا الانسان الوضيع ، وسألت نفسي اهو إنصاف ان ابـــتز مالاً من احد من الناس ، ولوكان هذا الاحد دجّال القرية فهد ، لأعطيه لسلمان هذا الوضيع المبتز بالغش كما العجائز والصبيان ؟ كلّ هذا قعد بي عن الرد على مـا قاله فهد، فسكتّ بينما انطلق هو يقول دون ان يتنحنح هـــذه المرة او يسعل وقد ايقن بان الجو قد خلا له :

ـ نعم يا شيخ نايف ، ان الله سريع العقاب فما جنـاه سلمان بالكمأة قد اضاعه بالكينين . ان جوهر الكينين يشابه جوهر الكمأة كما تقول نسخة قديمة عندي من تذكرة الشيخ داود الانطاكي ، واظن ان ابني الدكتور عبد الحليم يوافقني على هذا ، والدليل انه يبتسم وهو الذي كان غاضباً عليّ متحمساً لسلمان ورجل سلمان .

وفي الحق يا عزيزي كنت ابتسم . لا لأن جوهر الكمأة يشبه جوهر الكينين ولكن لاني رضيت لنفسي خسران اول معركة علنية لي مع فهد ، ابتسمت وقلت في نفسي : من يدري لعل الله انتقم من سلمان فضربه بابرة فهد حد الغش فشلّ رجله . ولعـل ما لم تقله تذكرة داود الانطاكي حقيقة . ولعل الشبه بين جوهر الكمأة وجوهر الكينين حقيقة كذلك. فمن الذي ، في الحقيقة ، يدري في هذا الوجود اين هي ، وما هي ، الحقيقة ؟ .

القفاز

•

في ذات مرة قال لي الشاعر الذي كنت واياه على طرفي نقيض في جدال طويل ، قال لي فجأة : اسمع يا صديقي ، انا وانت اساتذة في الجدل ، فقل لي بربك كم مرة خضنا فيها نقاشاً حاداً تمسك واحدنا برأيه ودافع عنه دفاع الجبابرة ، ثم لما ترك مناقشه وخلا بنفسه وجد انه قد اعتنق الفكرة التي كان جاداً في دحضها ؟ سأختصر الطريق واعترف لك باني قانع بالرأي الذي تقول به والذي ادافعك عنه ، فماذا تقول انت ؟ فسكت لحظة اكتشفت اثناءها اني بالرغم من كل ما قدمته من حجج لرأيي اشعر ان الصواب في رأي مجادلي اكثر منه في رأيي ، فابتسمت وقد آمنت بما قاله .

وفي هذه الليلة كنت في نقاش كذاك الذي دار بيني وبين الشاعر . كان مجادلي يقول إن كل موجود في الوجود مستقل بذاته وان الرابطة بين الموجودات هي وهمٌ في عقولنا نحن البشر ،ليس لها من اثر على الموجودات نفسها . اما انا فقد زعمت ان ما من كائنين في الوجود يعدمان رابطة ما بينهما ، واني قادر على ان

اجد بين الزبيبة وقيصر صلة ما ، صلة شبه او تناقض او علاقة ، وان اجد اثر هـــذه الصلة في كل من الزبيبة وقيصر باعتبارهما موجودين في الوجود . قلت له : هذا قفازي . ان الشتاء قـــد انقضى وقفازي قد تمزق ، وسألقيه مع نفايات الثياب ، ولكني لو اعملت فكري لوجدت في هذا القفاز سبباً وثانياً وآخر ثالثاً كلها تربطني به ، وتجعله عزيزاً عليّ ، وتباعد بينه وبين النبـــذ والاطراح .

وافترقنا انا ومجادلي وكلٌ مصر على رأيه . وكان خليقاً بي بعد ان خلوت بنفسي ان أُصاب بما اصبت به اثر نقاشي مع صاحبي الشاعر ، ولكن الذي حدث اني لم اقصر عن الانحيـــاز لرأي مجادلي فحسب بل حدث ما هو اعجب من ذلك ، اذ اني آمنت برأيي ايماناً جازماً . . ! فقـــد تطلعت الى قفازي الممزق وهو في يدي فلاحت لي المزق من جوانبه والخيوط الدخيلة عليه ونصول لونه ، فخيل اليّ ان في كل ثنية دب فيهـا البلى من ثنياته قصة تهيب بي ان قفازك هذا ليس متاعاً خلقاً بل صاحباً قديماً وعشيراً عتيقاً ، فما اعقك من انسان لو عملت بما تنويه ودستَ على الصحبة والعشيرة بقدم الجحود والنكران ! فرددت معطفي على صدري ودسست يدي في القفاز ورحت اذكر ما مضى .

الفكر

لو بسطت رأيي في الموجودات كما يؤمن به عقلي لضحك مني الناس . فالحياة المادية عندي ، وهي الحيـــاة القائمة على قانون السببية ، ليست الا وجهاً من الحقيقة في الوجود . كيف نجزم

اننا كأنامي نفوق الجماد بميزة ما ؟ اليس هو العقل الانساني الذي يدعي ذلك؟ولكن من ذا الذي يستطيع اقناعنا بان العقل الانساني ميزان لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ اتراني حين اشتريت هذا القفاز قد ملكته ام هو الذي ملكني ، بل اقول أهو الذي اشتراني ام انا الذي اشتريته ؟ ان الحادثة التي جمعت بيني وبين القفاز الذي حاولت اليوم نبذه تمتّ الى تفكيري بصلة قوية وتقنعني بان آرائي الشاذة اقرب الى الحقيقة المطلقة من كثير من ترّهات الفلاسفة وسفسطات المناطقة ،فكيف تطاوعني كفي على طرحه وينكر عليّ عقلي قدره ومقامه بين عشرات الاشياء التي احوزها وتنالها يدي ؟ !

بعد ان اضناني الطواف على متاجر المدينة عثرت بقفاز يرضيني ، لونه اللون الكامد في غير اغراق ، وطرازه البساطة الانيقة ، ناعم الملمس ممشوق الاصابع. ما احلاه من لقية !.. ولكن التاجر الارمني لم يرض في عتمة المساء ، قبل ان يغلق متجره ، ان ينزل عن الثمن الذي طلبه لهذا القفاز : اثنتين وعشرين ليرة ! كيف ادفع ثمناً مثل هذا في متاع هو في بلدتي الصغيرة التي اعيش فيها حلية اكثر منه حاجة ؟ وتعنت التاجر فتعنتّ ، واغلق دكانه على قفازه فانصرفت مغلقاً جيبي على دراهمي ورغبتي معلقة بالقفاز . واقلقتني تلك الرغبة ذلك الليل كأن في القفاز منية النفس ، فاعتزمت شراءه في الصباح ولكني كنت اخاف ان تنطلق السيارة بي في الصباح قبل ان يفتح التاجر حانوته . وكان ذلك ، فقد أعقت السيارة عن الخروج في ميعادها دقائق كثيرة

ولكن الارمني أبى الاان يكون نؤوم الضحى فسرت الى بلدتي البعيدة وانا اعجب مما تركه هذا القفاز عندي من اسف ما اعتدت ان احمله لحاجة مضيعة .

يبتسم اصدقائي الخلص حين أخبرهم بان عنـــدي من القوة النفسية ما يثبت ان هناك غير قوانين المادة مسيطر على الكون . ولا ازال اذكر يوماً واهنت صديقة لي ، في حفـــل ، ان آتي باختها الجالسة في الصف الامامي الى صفي دون ان تبدو لها مني اية اشارة . فلم تؤمن ، ولكن اختها تلك تركت كرسيها بعد خمس دقائق وجاءت الينا ! قد يكون السبب المادي الذي جاء بها انها تخلت عن مجلسها لسيدة اكبر منها سناً ، ولكنها جاءت على كل حال ، وجاءت بعد ان اردت مجيئها . ومثل هذه الحادثة كثير عندي وعند غيري ، ولكنها تمر على الناس فلا ينتبهون لها او انهم يلقون عليها سلسلة من التعليلات المعقدة خوفاً من الاقرار بقصور تفكيرهم عن ادراك كل ما في الوجود . امـا انا فأني لم اضلل نفسي فاسرد لك ما جرى بيني وبين القفاز بشباك من التعليلات الموهمة والتقديرات المعقدة . ولم التعقيد والتضليل والامر واضح ؟ لقد كانت السيارة التي ركبتها الى بلدي جديدة فارهة والسائق متمكنا من مقوده نشيطاً في جسمه ، ولكنها بعد ان بعدت بنا عن المدينة اخذت ، تلك السيارة ، تتلوى وتتشكى ثم تظلع حتى كاد السائق يؤمن انها مسحورة او أن عيناً اصابتها في هذا الصباح . ولم يلبث ان رفع يده عن المقود واستسلم للقوة التي حالت بيننا وبين المضي في سبيلنا . ولحقتنا سيارة بديلة لم يرض صاحبها ان

ينقلنا الى غايتنا بل عادت بنا الى حيث بدأنا .

وفي المدينة كان أول همي ان انزل الى حيث الارمني المتعنت. رأيته يجادل شارياً في امر قفازي الذي اذاقني اللوعة، فمددت يدي اليه بما طلبه امس وانتزعت القفاز منه . وعدت فوجدت سيارتنا مهيأة للسفر ، فسرنا كأنما لم يعقنا عائق او يردنا مرد غير هـذا القفاز الذي احاول ان القيه مع خلق المتاع في هذا اليوم .

منذ ذلك الحين لم اقتصر في اعتقادي على ان لناموس السببية من يخرقه في عالم العاقلين والاحياء بل اصبحت أرى ان الجوامد نفسها تملك من القوة ما تجذب به انساناً ، بل مـلء سيارة من الاناسي عشرات من الاميال لتحقق رغبة صغيرة قائمة في صدر شاب . ومن الذي يقول ان ليس بين ثنيات القفـــاز ومغارس خيوطه مكان لمثل تلك الرغبة ، تلك الرغبة الصغيرة ؟!

القلب

في كفي، وفي كل شتاء، كان هذا الكائن اللين الملمس ،الانيق المنظر ، الملتزمت في لونه ، قفازي يتنقل بين البلدان الكثيرة التي كانت تقودني اسفاري اليها ، الى ان القى به وبي المطـــاف الى المدينة الكبيرة حيث كتب لي ان اقيم ردحـــاً مـــن الزمن لأؤدي مهمة مرموقة . لقد كان لي في هذه المدينة صداقات جمة ، بعضها لشبابي وبعضها لادابي وبعضها للمهمة الـــتي كنت اقوم بتأديتها . ولكن واحدة منها لم تبلغ من الجمال والمتعة المغمورين في دنيا من البساطة الخلابة ما بلغته الصحبة التي نفحني بها قفازي.

كنت عهدت به ، بالقفاز اعني ، الى الفتى الذي كان يدير الحانوت العجيب بجواري حيث كانت تخاط القمصان وتكوى الالبسة وتصلح الساعات وترسم المناظر الطبيعية ، ليخيط فتوقه ويصبغه اذا احتاج امره الى صبغة . وفي ظهيرة اليوم التالي قرع جرس منزلي ففتحت الباب فاذا بقفازي تحمله ، كما يحمل المتبتل كتابه ، يدان رشيقتان كساهما الشظف خشونة لم تأت على وداعتهما . كانت بالباب زوجة الفتى صاحب الحانوت العجيب . وقد طالما لاح لي قوام هذه المرأة الممشوق في ظلام عُقر حانوت زوجها فلم اميز منها غير امتشاق قدها وألق عينيها الذي كان يتنقل في الظلمة كأنه التماع عين قطة مرتاعة حذرة . اما في هذه الظهيرة الحارة فقد امكنتني رؤيتها وتملي محاسنها في هدوء ودون رقيب . كان جسمها في تفاصيله التي كان يشرحها ثوب بسيط جيد الحبك افتن بما كان يظهر لي في إجماله في ظلمة دكان زوجها . اما وجهها فقد كانت فيه شفة سفلى شيقة الاستدارة لذيذة الامتلاء توحي بشعور جارف محطم لولا ان نظرة صافية مبعثها عيناها الزرقاوان كانت تهدىء من حدته وتكسر من شرته . وأطلت النظر وانا اتأمل عينيها ، لقد كانتا تتكلمان ، وكأنما بدا لها اني لم افهم حديث عينيها فلم تلبث ان قالت بلسانها :

— تسمح ؟

ولعلها كانت تريد أن تقول لي : هل تسمح فتتناول قفازك ؟ اما انا فقد اردت ان افهم من كلمتها غير ذلك فتنحيت عن الباب بحركة داعية ، بل مستجدية تقول بالحاح ولهفة : تفضلي ، ارجوك !

فدخلت منزلي في تلك الظهيرة تلك الحسناء زوجة الفتى صاحب الحانوت العجيب .

وكانت تلك ، كما قلت صحبة فريدة في جمالها المغمور في جو من البساطة الساحرة. كانت في باقة صداقاتي زهرة من البنفسج ، كلون عينيها ، في تواضعها ودعتها ونشرها الدافيء الساحر. كنت اسأل نفسي في عجب: من اين لصاحبة العينين الزرقاوين، البسيطة البيئة ، الضيقة الافق هذه النفس الخصبة والروح الفياضة ! وحين ازمعت عن المدينة رحيلاً لم تهتز نفسي للحن ينبعث من عاطفة حبيب بمثل ما اهتزت به لوداع جارتي ذات النظرة المتألقة صفاء والشفة المليئة اشتهاء. لقد اشاحت عني بوجهها وفي اجفانها سحابة دمع ، ولعلها كانت تتطلع الى القفاز متذكرة كيف كان هو السبيل الى تعارفنا ، وقالت :

— هكذا تذهب ؟ ليت ذلك الكف ما تمزق ، وليت يدي ما خاطت فتوقه ...

الروح

ليت ذلك الكفّ ما تمزق !.. وهل تنفع ليت يا صاحبتي؟ لو تدرين كيف تمزق قفازي واين تمزق . مثل المزق التي في جلده كانت المزق من اجساد اصحابي ومن قلبي على التل المشرف على عين زيتيم ، تلك المستعمرة ، بالقرب من صفد .

كان اليهود يحاولون الاستيلاء على ذلك التل جهدهم ، فاذا تمركزت مفرزة من مجاهدينا على قمته عمدوا الى طردها لا بالالتحام

بالنار ، بل متدرعين بجراوة مصفحة اصبحت لهم كدبابة ، وكان كل يوم يمر بنا يرفع من قيمة ذلك التل في اعيننا واعينهم . وعزم الملازم ،قائد قوتنا من المجاهدين ، على ان لا يخليه بعد الآن ، فساق اليه في الصباح مفرزة بقيادة معاونه ، وكان صباحاً مشرقاً حين سارت المفرزة واحتلت ذروة التل فكنا نرى شخوصها ونحن في القرية عن بعد ،ونكاد لفرط احساسنا بما يجري على التل نسمع العريف « ك . » يملأ الجو شتائم لليهود وازيز الرصاص الذي كانوا يجيبونه به على الشتائم . ولكن اشراق ذلك الصباح لم يلبث ان تبدل وامتلأ الفضاء بغيوم دكن تسوقها رياح باردة عاتية ،ثم هطلت الامطار غزيرة حتى لقد غابت ذرة التل وراء ستار من المزن الهتون . مساكين اصحابنا الذين قصدوا الذروة وهم يأملون ان يقضوا نهاراً دافئاً بشمس الربيع ورصاص العدو ، لقد عادوا في المساء معجونة ثيابهم واجسادهم بماء المطر وطين التـــل الاحمر ، مسفوعة جلودهم بالرياح الصرصر . وكان ما لقوه من نهارهم بعض ما ستلقاه المفرزة التي ستخلفهم على التل في الليل . اخذ رجال هذه المفرزة البديلة يتهيأون كي يستلموا مراكزهم ، لبسوا اعباءاتهم واستطاعوا بعد الجهد والمشقة ان يضعوا اقدامهم في احذية رجال المفرزة التي سبقتهم لان هذه الاحذية على بلاها وبلها كانت خيراً من صراميهم الحمر الـــتي جاؤوا بها يقاتلون العدو . اما قائد المفرزة ، وهو اخ الملازم قائدنا جميعاً ، فقد استعار معطف اخيه . وتلفت باحثاً عن قفاز يدس فيه كفيه في هذه الليلة الباردة . وكان القفاز ترفاً في هذا الجو الذي كانت الاحذية الصالحة فيه لقية لا

نقوم بثمن ، فمددت يدي بقفازي اليه وقلت له : خذ قفازي لا كساء بل تعويذة ، فانه إن لم يحم يديك من القر فقد يحميهما من الشر ! وشددت على يديه قبل ان يسير في مقدمة اصحابه مصعداً في الطريق الملتوية الى التل المشرف على عين زيتيم .

اية ليلة تلك التي مرت على اولئك الابطال في خنادقهم الموحلة بين عصف الريح وتهطال المطر وقرس الزمهرير ؟ كان بجانبي في الغرفة التي كنا نأوي اليها في القرية الملازم « هـ . » اتراه نعم بغفوة ذلك الليل ؟ لا احسبه فعل ، وكذلك لم افعل انا . كان اخوه هناك على الذروة يقود المفرزة ، اما انا فكانوا كلهم هناك اخواني : القائد ورجاله . وكان الليل الموحش يتمزق بين حين وحين باصوات ودمدمات بعضها للمطر والريح ، وبعضها للرعد والصواعق ، وبعضها منبعث من خطوط قتالنا او من اعماق نفوسنا . فكنا نضع ايدينا على قلوبنا متسائلين : اهذه الاصوات لنا ام علينا ، من أَرْدَتْ ومن فاتت . ولما اصبح الصباح وارتسمت خطوط المرتفعات على الافق لاحت لنا شخوص المفرزة منحدرة من التل الينا . كنا نتلع اعناقنا ونحدد ابصارنا لنرى ونميز من عاد ممن تخلف . وقليلاً قليلاً لاحت لاعيننا تحت رذاذ المطر عباءتان قد تناقل كلاً منهما اثنان من المجاهدين ، مجاهدان كانا ضحية الليلة انفجر عليهما لغم زرعه اليهود فمزق جسديهما .

مجاهدان اثنان كانت لا تزال بهما بقية من رمق . كان احدهما يتململ ولا يعي ، اما الآخر فكان يتساءل عن اصابته اهي بليغة ؟ فاذا اجابه واحد منا مطمئناً كان يقول - وهو فلاح سقط رأسه

في قرية ضائعة في شمال سوريا :

ـ معليش . فـــدى الوطن .

وماتا ، مات المجاهدان ، فدى الوطن . ودفنّا جسديهما في تربة الوطن الذي ماتا فدى له . وطوينا انا واصحابي جوانحنا عـــلى قبرينا الممزقة كجسدي الشهيدين في حين كان قائد المفرزة الليلية يضع في جيبي هذا القفاز ، بعد ان عركه المطر والريح ووحل التـــل ، ممزقاً .

*

حين بلغت بذكرياتي هذا المبلغ تطلعت الى قفازي الممزق في يدي ، فلاح لي على صورة لم أره عليها من قبل . كونه ولونه وفتوقه وخيوط الرفو فيه كانت تحدثني بمنزلته مني في ذكريات الفكر والقلب والروح . كيف كنت جامد العاطفة الى الدرجة التي نسيت فيها كل هذا الذي ذكرته الآن واعتزمت معها على نبذه واطراحه متاعاً خلقاً ؟ ! في هذه اللحظة استللت كفي من القفاز وطويته في عناية وحذر ووضعته في جيبي ، في هدوء ، مبجلا مكرماً .

الظهيرة

•

كانت الشمس تتقد والارض ملتهبة ، وفي دائرة قطرها مد البصر من تلك البادية المحترقة بنار الظهيرة لم يكن يتنفس حي او يمتد ظل لغير الهجّان مزيد ، وحيداً في خيمة المخفر الذي اقامته قوة البادية في « رحوم » لتضبط حال القبائل المتنقلة بين موارد الماء في فصل القيظ . وكان الهجّانة رفاق مزيد قد غرّبوا منذ الصباح وتركوه في الخباء خفيراً ، فغبط نفسه على الراحة أول الامر ، ولكن الوحدة في البادية اخذت تثقل على صدره كلما ارتفع قرص الشمس في صفحة السماء المتوهجة . وكان يضطجع في رواق الخباء فيشعر بالسموم تخترق فرج الرواق كأنها انفاس ثعابين تفح في مسمعه وتلفح وجهه . اما اذا مد بصره إلى السهل المنبسط أمامه فان الهواء كان يلوح له في جو ذلك السهل كأنه ألسنة متوهجة من لهيب ابيض ، والتراب كأنه حميم يغلي تعلوه ابخرة لا تُرى ولكنها تحس . وكانت تتراءى لعينيه بقع من السراب متفرقة على مد البصر كأنها بحيرات لجينية من ماء صاف ،

وكلما تقدم النهار اجتمعت تلك البحيرات واتسعت ، ويا لها من بحيرات عجيبة تفور وتغور ويتلاطم موجها ويتطامن بين نظرة من مزيد وكرة من عينه عليها .

وردّ مزيد عينه عن بحيرات السراب ، فقـــد كادت تخطف بصره ، واخذ يزجي وقته بان ينقل لحظه للمرة المائة بين محتويات الخيمة تفقداً لها . انها هي هي : دلال القهوة المغروسة في رمـاد حفرة الموقد ، وبساطان يدثران مؤونة العجانة لمدة اسبوع ، وحوائج منثورة في جوانب الخيمة وفي الزاوية ، على احــدى الخدائج التي كانت تقوم في الخيمة مقام الوسائد ، كانت تستند بندقية مزيد القصيرة ملفوفة ببرنسه الاحمر ، لقــد كان حديدها الكامد يوحي اليه ما يوحيه السراب المتوهج من احساس بوقـد الظهيرة ونارها المتأججة . لم يكن في جميع ما يحيط بمزيد ، من قريب او بعيد ، ما يؤنس وحدته او يخفف من وطأة حر البادية الثقيل اللاهب عليه . فتقلّب في مضجعه واغمض عينيه ، غـير راغب في النوم ، وانقطع عن كل ما يحيط به منصرفاً الى نفسه.

لقد رجع مزيد بنفسه إلى نفسه . لـئن لفحه سموم البادية في الظهيرة فقد هبت عليه من ذكرياته نسمات الليل في قريته البعيدة ، البعيدة جداً إلى الشرق ، على الفرات . ولـئن امضّته الوحدة فقد تراءت له طيوف اصحابه هناك ، واماسي الانس في الاعراس ومجالس الليل في ضوء القمر . صرير الجنادب في الجو المتقد اخذ يعيـــد الى مسمعه ، وهو مغمض العينين ، خوار العجول في الاصائل الراطبـــة وهي عائدة من مراحها يطن حول رؤوسها

obeikandl.com

الذباب المتطاير من الحقول الريانة . وزفيف الريح الذي تقطعه دبدبة رواق الخيمة اخذ يذكره بزفيف مزمار « الربعي » شاعر قريته وهو ينفخ فيه للدابكين على تل القرية. هناك على تل القرية كم دبك مزيد وعلى يده فتاتان من صبايا القرية يلن فتضج حلاهما وتترجرج نهودهما وتتوجعان وهما من اعناته لهما في لذة . الآن اصبحت سميرة وحشته في هذه العزلة بندقية قصيرة يابسة الملمس فقد كانت سميرته هناك — حيث يسيل النهر لامعاً في الاضاحي وتئن الغراويف عليه في الاصائل ويرتفع قصب الذرة في الصيف حتى يغطي الفارس — صبية فرعاء ممشوقة ، لينة القد ، في عينها سحر وفي عضدها الايمن سوار ثخين من زجاج ازرق ، وكانت اذا وردت الماء ورفعت ذراعيها بآنيتها الى رأسها انحسر ردن الثوب عن ذلك السوار فبان فوق مرفقها عاضاً على لحم الذراع العبل يتصبى القلب ويأسر العين . تلك هي « خود » .

ووقفت ذكريات مزيد عند خود تطوف حولها. رآها ، وهو مغمض العينين ، تملأ قربتها من الفرات وهي بين لداتها تفرعهن طولاً ووثوب نهدين ورنين ضحكة . واحس بها لدنة العود تطفر جوانحها نشوة وهي تدبك على يده في عرس اخيها ، وكلما ارهقها جذباً في دبكته انثنت عليه متشكية في استسلام . وكاد مزيد يحس بانفاسها على وجهه في تلك الليلة اليتيمة التي جمعهما فيها المسير وهما آيبان من مراح الغنم . لقد جاذبها حديث الغزل فما تأبت ، واطبق باصابعه على كفها فاسلمتها اليه راغبة ولكنها تمنعت متضاحكة حين حاول ان يقبلها . وما كان اغباه ليلتذاك إذ اخذ

بتمنعها فلم يُلحّ .. ما كان احوجه الى تلك القبلة يملأ بها وحدته في هذه البادية الموحشة القتالة .

واستقر خاطر مزيد على القبلة التي اضاعها من خود تلك الليلة ، فاخذ خياله يتنقل بتلك الهناءة التي لم تكن ، بين خدها الاسجح اللامع في شقرة محروقة ، الذي يزينه وشم صغير كانـــه زهرة « الخاتون » البرية ، وبين ثغرها الألعس مضموماً ، اذا تدللت ، بشفة عليا ناتئة وسفلى غليظة تملأ الفم والقلب ، او منفرجاً نديا اذا رغبت واستسلمت . فكيف اضاع تلك السعادة في تلك الليلة؟ أكان حياء منه ام إباءً كاذباً ؟ او ما كان يدرك أنها اكثر رغبة منه فيها ، ولكن طبع النساء يأسرها ؟ وهل تراه كان ينتظر منها ان تترامى بين ذراعيه دون ان يجهد نفسه في مداورتها وترضيها؟ ما كان اغباه واظلمه لنفسه وأكفره بالنعمة التي كانت متاحة له .

وملأت رأسه وصدره وخياله تلك القبلة الضائعة فكان وهو يتحرق ندماً عليها وشوقاً اليها يكاد يحس بشفتي خود بين شفتيه ويضم قدها اليه . وتململ والاحاسيس تغلي في حر الظهيرة في نفسه وجسمه فاذا بيده تمس حلقة طنب الخيمة التي احمتها نار شمس الظهيرة ، فتكتوي بها . فهب واقفاً وقد ايقظته لسعة الحديدة المحماة من احلامه . واخذ يدعك عينيه كأنه قد استيقظ من نوم عميق ، وتطلع من جديد ، الى البادية حيث الهـــواء الملتهب وبحيرات السراب العجيبة .

وبدت بحيرات السراب لعيني مزيد بعد يقظته كما كانت قبلها ، غير انها ازدادت اتساعاً فاصبحت كبحر لجيّ وكانت من صفائها

جديرة بان تعكس خيال بعوضة لو طارت فوقها ، ولكن جو البادية لم يكن فيه إلا ريح السموم ، وريح السموم ليس لها ظل ينعكس . وفجأة تراءت على سطح السراب ، في اقصى الافق ، شخوص مسودة اخذت تخوض فيه من هؤلاء الذين عدموا ظلة تقيهم النار الموقدة في هذه الظهيرة فخاضوا فيها الى قممرؤوسهم ؟!

واخذت الشخوص تتضح لعيني مزيد كلما تقدمت ، كانت قافلة من رجالة وحمير تتراءى اخيلتها بينة في السراب فتكاد تكون لصفائه اوضح للعين من الشخوص نفسها . واقتربت تلك القافلة شيئاً . الا ان خط سيرها لم يكن على ما يظهر ماراً بخيمة الهجانة ، اذ انها لم تلبث ان ابتعدت عنها مجتازة البادية عرضاً وقد بدت ، على بعدها ، منهكة القوى باناسيها ودوابها تكاد شخوصها تقتلع ارجلها من الارض اقتلاعاً كأن تراب البادية قد اصبح وحلاً من حميم ، ذائباً في اتون الشمس المتقد . وبينما كان مزيد يرقب القافلة وهي تبتعد خائضة في امواج السراب رأى احد شخوصها ينفصل عنها ويتجه نحوه ، فثبت بصره به بعد ان كان قد عزم على ان يريح عينيه من وهج الضياء ويدلف الى داخل الخيمة ، ليستعيد ، بعيداً من الظهيرة والوان الوقد فيها ، ذكرياته عن الارض الراطبة والحقول الريانة والنهر الجاري في قريته البعيدة جداً الى الشرق ، حيث نهر الفرات وقصب الذرة السموق وخود اللفاء القوام ذات الوشم الازرق على صحن الخد والسوار الازرق في العضد العبل .

ولما بلغ الشخص المنفصل عن القافلة خيمة الهجانة كان واضحاً

من مشيته انه قـــد بلغها بشق النفس . فلما مـت قـدمه ظل الخيمة انطرح على الارض الباردة ، الباردة نسبة الى تراب الفلاة المحرق ، كأنه كان في شوق اليها . وكان كهلاً طويل القامـة ، لولا ان عينيه قد اعشاهما وهج الظهيرة فاصابها الحوص ، ولولا ان اهدابه كساها نثار من عثير البادية فبدت كأنها مسفوعـــة بوجة من لهب ، لكان واسع العينين طويل الاهداب . وكانت لحيته كثة سوداء وثيابه يكسوها رداء حضري ، وفي عنقه سبحة صغيرة الحبات طويلة وفي يده عصا عقداء في رأسها نائتـة كأنها قرن غزال . فكان في هيئته ما دلّ مزيد على ان هذا الكهل المجهد عراف من المتعيشين بالتنقل بين مضارب القبائل يقرأون الفأل ويتنبأون بالغيب ، وان قافلته ذات الحمير انمـــا هي نزل من النزول الضائعة الاصول بين البداة ، ربما كانت « صليب » او « بو مسلّم » او مزيجاً من هؤلاء وهؤلاء بالنوَر . وكان لهاث هذا المسكين يدل على ان العطش قد اجهده وان هذا هو الذي اتى به الى خيمة الهجانة ، فقام مزيد ، دون ان يفوه بكلمة ، بطاس النحاس اليه وفيه قليل من الماء غبّه غبة واحدة . وبعـد ان انطرح قليلاً اعاد اليه مزيد الطاس كرة اخرى فشرب حتى اكتفى ، ثم انطرح على وجهه متمرغاً بتراب ارض الخيمة المرتوية ظلاً . وكان على الكهل الاغبر ان يلحق بقافلته قبل ان يغيبهـــا الافق ، إلا انه كان مضى يحاول ان يطيل إقامته في ظـل الخيمة إلى ابعد امد يمكنه . وسأله مزيد :

— من اين اقبلتم في هذا اليوم المحرق ؟

فاشار الكهل بيده اشارة واهنة وقال :

ـ من شعب النفيل ، سرينا قبل الفجر ولا تزال رحوم علينا بعيدة . في كل القافلة لم يعطش احد عطشي . هذا اثر المدينة علي .

ـ هل كنت في المدينة ؟

ـ منذ سنتين وانا اتنقل بين البلاد: حلب ، عاليه ، طرابلس . سل بنات البكوات عن الشيخ عبدالله قرن الغزال . أنا هو .

فضحك مزيد وقال :

ـ وآخرتك يا قرن الغزال أصبحت وراء ظعن الحمير . . .

فزفر الشيخ عبدالله وهو يقول :

ـ دنيا يا سيدي الضابط ! اعط يدك للشيخ عبد الله اسيرى حظك .

ولم يكن مزيد ضابطاً ، ولكن يبدو على هذا الشيخ الاسود العينين أنه ظريف . فمد كفه اليه وهو يقول :

ـ هل ترى غير الملازم حاملاً معه المؤونة وراتب الشهر ؟

ـ فاخذ قرن الغزال كف مزيد وقلبها بين يديه ثم تطلع الى عينيه بثبات ، وقال في جد :

ـ انت مثلي يا حبيبي . رأسك عند بنات البكوات ورجلك في تراب الفلاة المحرق . في كفك بنت وأي بنت : طويلة ، شعرها لامع ، مقرونة الحاجبين . انها تنتظرك . لا تنم يا صياد عن شبكتك ، فان اليمامة التي فيها قد تفلت ، وقد يمر صياد غيرك فيأخذها .

ـ قل هذا عن غير يمامتي .

ـ كل الطير سواء يا حبيبي . هذه البنت الطويلة كم انت مشتاق

اليها في وحدتك . آه لو كانت معك في هذه الخيمة ! ولكن يا لطيف من يضع الذئب والنعجة في حظيرة واحدة ؟ في نفسك من هذه الحلوة المقرونة الحاجبين شيء يا حبيبي .

ـ ما هو ؟

ـ بوسه ...

فارتجف مزيد الذي عادت الى ذهنه خواطره عن القبلة التي فاتته من ثغر خود ، وقال لنفسه : لقد اصاب اللعين الهدف . أما الشيخ عبدالله فاستمر وكأنه يقرأ افكار مزيد :

ـ كم تدفع في بوسة من خدها ؟ وفي واحدة من شفتيها اللتين لهما مثل طعم العسل بشهده ؟

ـ أنت خرفان يا قرن التيس ...

ـ هل تدفع هذا البرنس الاحمر ؟

فتوجه مزيد بنظره الى زاوية الخيمة حيث كان برنسه ملفوفة به البندقية . وابتسم لنفسه وهو يقول : ما اهون الخيمة وما فيها في قبلة من ثغر خود . ليت هذا النوري اللعين يتكلم بما في الطاقة . أما الشيخ عبدالله فقد قام الى ركن الخيمة وتلمس البرنس باصابعه ونشره بين يديه كأنه حقاً يريد ان يبيع به مزيد قبلةً من حبيبته . والتفت اليه من حيث كان واقفاً وهو يقول :

ـ هل تبيع ؟

فابتسم مزيد وهو يقول :

ـ نعم يا قرن الغزال ، نعم ...

ـ وما اسم امها يا حبيبي ؟

فضحك مزيد وهو يقول :

ـ امها ؟ اسم امها « سوده » .

فتطلع الشيخ عبدالله في عيني مزيد حتى اخذتا تطرفان ، ثم سار ببطء اليه واخذه بيده وخرج به من الخيمة خطوات بعيداً عن ظلها . وكان مزيد يسايره والابتسامة على شفتيه . واحس بالشمس من فوقه تلفه بوقدها وبالارض من تحته تغلي بحرّها . وحدّث نفسه بالرجوع الى الخيمة ولكن عينيه غامتا بالوهج ورأسه دار من الحر . وبدلاً من ان يسير الى الظل تطلع الى السراب فرأى فيه شخصاً يتقدم اليه من بعيد . ودلك اجفانه ثم فتحها ليثبت الشخص ، فراعه ان تبدّى له قدّ امرأة . . . ووجف قلبه . . . ولم يصدق عينيه ، فقد كان يعرف ذلك القد ويعرف صاحبته . ان هذه التي انفصلت اليه من سراب رحوم مقبلة عليه بقامة فرعاء وشعر وحف وخدّ يزينه وشم كزهرة الخاتون البرية وشفتين خلقتا للقبل ، لم تكن ، صدِّق او كذّب ، غير خود ، خود . . حبيبة القلب ! . . .

***

في حديقة المستشفى العسكري في دير الزور قال الملازم وهو يرشف ثمالة القهوة في فنجانه ، يسأل الرئيس الطبيب :

ـ هل تراه يا سيدي الرئيس يستطيع الاجابة بوضوح على اسئلتنا ؟

فقال الطبيب :

ـ بكل راحة على ما اعتقد . لقد نجا من ضربة الشمس بعد

ان كادت تقضي عليه ،غير ان قـــدميه ستعذبانه زمناً غير قصير. ما الذي حمله على ان يسير حافياً في الظهيرة القائظة حتى نضجت راحتا قدميه ؟

لا احد يعلم الدافع له على ذاك . قال رجالي انهم حين عادوا من دوريتهم وجدوا مزيداً مطروحاً بعيداً عن الخيمة في الشمس المتقدة ، شفتاه مزبدتان ووجهه بلون النحاس المحمي . ونقلوه اليك دون ان يظفروا منه بكلمة . فلعل هـــذا النوري الذي وجدنا عنده برنس مزيد يستطيع ان يكشف لنا السر . هل تسمح يا سيدي الرئيس ؟

فوقف الرئيس الطبيب وتبعه الملازم بعد أن أشار الى جندي من الهجانة كان يحمل بيده برنساً احمر ويحرس كهلاً كث اللحية يلبس رداء حضرياً فوق الثياب البدوية ، في عنقه سبحة طويلة وفي يده عصا عقداء هو الشيخ عبد الله قرن الغزال . وتقـــدم الجميع الى احدى قاعات المستشفى حيث كان مزيد ، ناحل الجسم منهوك القوى ، ممدداً في احد الاسرة . ولما وقف الملازم فوقه حاول ان يتحرك حركة احترام فاشار عليه الملازم بالراحـــة وقال له :

— يا مزيد . وجدنا برنسك الضائع عند هذا النوري . انه يزعم انه اشتراه منك وانك قبضت الثمن . فهل تعرفه ؟

فالتفت مزيد الى حيث كان الشيخ عبد الله قرن الغزال واقفا تبدو على ملامحه الذلة والمسكنة ،ولكن عينيه السوداوين المظللتين باهدابـــه الطويلة لم يكن فيهما شيء من ذلك ، ولم يجب بينت

شفة . فقال الملازم :

ـ وانت يا صاحب الذقن الملعونة ، ألا تزال مصراً على انك اشتريت البرنس من مزيد ؟

فقال الشيخ عبد الله في هدوء :

ـ أنا اشتريت وهو باع .

ـ بكم اشتريت ؟

ـ اسأله يا سيدي . اسأل مزيد !

فاستدار الملازم الى مزيد الذي ظل على صمته وقال له :

ـ أجب يا مزيد . هل صحيح انك بعت البرنس لهذا النوري وقبضت الثمن ؟ من اين لهذا الكلب ان يملك مالاً ، وانت أين مالك ؟ لم يجد الجنود معك شيئاً .

أما مزيد فكان مغمض العينين كأنه في غيبوبة . ولم يكن في الحقيقة كذلك ولكنه وهو مغمض العينين كان اقـــدر على استعادة ما رآه منـــذ ايام في حر الظهيرة في بادية رحوم . كان السراب في عينيه المغمضتين يموج موجـاً بينما كانت خود تخوضه اليه . أيُخدع عن خود وهو الذي قضى لياليـــه في تذكرها وترديد صور كل حركة من جسمها الملفوف لعينيه ؟ لقـد كانت تخوض السراب اليه فخاضه اليها حافياً ملهوفاً . ولمـا التقيا في تلك البادية القفراء وحدهما لا رقيبَ عليهما إلا الشمس المتقـدة ضمها الضمة التي كانت تملأ نفسه شوقاً وتوقاً،وتمتع بالقبلة التي فاتته منها ليلة آبا وحيدين من مراح الغنم في قريتهما . نعم لقـد قبض الثمن ،ثمن البرنس ، فلماذا ينكر ذلك على الشيخ عبدالله ؟

وارتفع صوت الملازم مكرراً :

ـ مزيد ، اجبني . هل صحيح انك قبضت ثمن البرنس ؟ هل تعرف عقوبة من يبيع شيئاً من تجهيزاته العسكرية يا بني ؟ ثلاث سنوات في السجن المنفرد . أجبني : أصحيح ما يقوله هذا النوري؟

فجمع مزيد قواه ليخرج بنفسه من حلمه الجميل ، ورفع رأسه قليلاً ليقول بصوت ضعيف مستسلم :

ـ صحيح يا سيدي الملازم . لقد قبضت الثمن !..

ثم استرخى على فراشه بينما كان رأسه دائراً . وما كان مزيد يدري لم كان دورانه : بحرّ الظهيرة الملتهبة ذات السموم اللافحة في جو رحوم ، ام باللذة التي لا تزال تداعب وجوده ، منذ تلك الظهيرة ، والتي قطفها من شفتين ممتلئتين لذة وصبوة وخدّ اسجح ذي شقرة محروقة يزينه وشم ازرق دقيق كأنه زهرة الخاتون البرية ، نامية في روضة ندية من رياض الفلاة في الربيع ...

سال الدم

•

ثلاثة أيام كاملة مضت على الآلة العجيبة التي جاء بها الحاج صالح وهي كبغل مختار قرية السمره الحرون لا يتقدم خطوة حتى يعاوده عناده فيثبت حوافره في الأرض ثم لا يتحلحل من موقفه قيد شعرة . وكان « ستراك » ، المعلم الأرمني الذي جاء به الحاج صالح من المدينة ليركب آلته العجيبة ، حائراً في السبب الذي يحول بينهما وبين العمل المنتظم . صحيح انه بين مركبي امثال هذه الآلة معدود في الطبقة الثالثة وان الحاج صالح قد انتقاه كعادته في الشح رغبة في التوفير ، ولكنه — اي ستراك — لم يقصّر في وضع لوالب الاساس للمحرك في مكانها من القاعدة الاسمنتية ، ولا في تثبيت المضخة على الجرف في أساس مكين ، كما انه — من جهة ثانية — أحكم ربط الانابيب وقياسها ١٢ انش ، بالمضخة وغمس شراقها في ماء الفرات على عمق كاف . وفوق ذلك فانه جعل القشاط الذي ينقل الحركة من المحرك الى المضخة بالقدر المناسب ، فلا هو بالطويل الذي ينهك

المحرك ولا بالقصير الذي يحطم مسننات المضخة . فلماذا ، مع كل ما صنعه ، يرى ان المضخة لا تكاد تصب بضع دفقات من الماء في الساقية الجديدة حتى يحشرج المحرك وتبطيء دقاته ثم يقف بين البسمات الهازئة المرتسمة على شفاه فلاحي القرية المجتمعين في بناء المحرك واللعنات المتلاحقة التي كان الحاج صالح يديرها بينه وبين نفسه حذراً ان يسمعها هؤلاء الفلاحون فيشمتوا به ؟ !

وكان الحاج صالح قد جاء بآلته هذه الى قرية السمرة ليغيظ اهلها ويحرق قلوبهم ويقطع ، ما امكنه ، رزقهم . لقد كان دأبه ، منذ أحس بأن له في المال الذي جمعه بالكدح والتقتير ظفراً يجرح ونابا يعض ، مناصبة أهل قريته عداوة شريرة كطبعه ينتقم بها منهم لاحتقارهم إياه في طفولته وصباه لضعة منبته ولعوامل كان أهل القرية رغم فقرهم - بل ربما لفقرهم - يقيمون لها اكبر الاوزان . وإذ كان اهل السمرة يعيشون من زراعة ارض قريتهم التي كان يملك اغلبها ملاكون مقيمون في المدينة القريبة وكانوا يسقون زراعتهم ببكرات ترفع الماء من النهر بالدلاء وتجرها الثيران فقد تفتق ذهن الحاج صالح عن وسيلة جهنمية يحارب بها هؤلاء الفلاحين المساكين . فقد اشترى هذه الآلة النارية التي لا عهد لقرية السمرة ولا لما حولها من قرى بها ، والتي تدير مضخة تقوم مقام ست بكرات وكل نيته ان يستقل بهـــا في سقاية مزارع السمرة فيطرد فلاحيها منها . ولم يكن اهـل القرية من الذكاء وبعد النظر بالقدر الذي يفهمون به مرامي الحـاج صالح ، ولو كانوا كذلك لما استطاعوا أن يقفوا امـام ما يرومه ، لذلك لم

تكن هذه الآلة الغريبة مبعث خوف لهم وانما كانت مبعث عجب وتطلع ومسلاة جديدة في بيئتهم المجدبة . فكانوا في كل وقت لا يكونون مشغولين فيه بسقاية الزرع او بسوق ثيران البكرات يتجمعون في البناء المصنوع من اللبن يتطلعون الى المعلم الارمني وهو يركب اجزاء المحرك ويدير صوامل لوالبها بمفاتيح متعددة الألوان والاشكال . وما كان أحد منهم يصدق ان هذه الحدائد بين مصبوغة وبراقة يمكنها في ذات يوم ان تقوم بعمل ثور من ثيران البكرات من التي يملأ خوارها الحقل ويأكل واحدهـــا في اليوم حمل حمار من الحشيش . ولذلك كانوا في كل سذاجة يجيبون على بسمات الحاج صالح المتوعدة الماكرة ببسمات تهاون كان فحواها ان كل حدائدك هذه يا حاج صالح لا تستطيع ان تغيّر من السمعة التي كنا نعرفها لابيك او ان تأتي لك بأم غير الأم التي نعرفها ... نعرفها جيداً !

الا ان رجلاً واحداً في قرية السمرة كان يدرك مرامي الحاج صالح ويتخوّف منها . ذلك هو الشيخ علي. كان الشيخ علي، معلم صبيان القرية وامام المصلين فيها ، يمتاز من اهل القرية بانه يملك كتباً صفراً يستطيع فهم ما فيها من الغاز ومعمّيات وبانه قد خرج من قريته فـــدار بلاداً واكل أعياداً كما يقولون فرأى وسمع عن آلات كثيرة مثل هـــذه التي جاء بهـا الحاج صالح . وكان ، اعني الشيخ عـــلي ، كثيراً ما تعرض الى ما لا يعنيه فدعا الحاج صالح برفق الى ما يأمر به الدين ودافعه عما عنه ينهى . الا ان الحاج صالح لم يكن يفهم الدين بالشكل الذي

يفهمه هذا الشيخ المأفون معلم الصبيان . فهو اذا كان قد حج الى بيت الله فانما فعل ليفقأ اعين مبغضيه من اهل قريته بانه وهو من هو في اعينهم قد وصل دونهم الى الغاية التي يدعو بعضهم لبعضها في الاعياد ، ويتوسلون الى الله ان يرزقهم بلوغها في اعقاب الصلوات . لذلك فانه كان يعتقد انه أذكى من ان تخفى عليه مقاصد الشيخ عليّ من كل هذه المواعظ التي يلقيها عليه . انه يحثه على الصدقة كي ينال نصيبه منها . ويدعوه الى الرفق بنفسه عن الكدح وبسط اليد كي ينقص ماله وتقر أعين عداته . فلما جاءه يسأله عن آلته الجديدة هذه لم يفته ان يجيبه في خبث :

— آلة هائلة يا شيخ علي . ستريح ثيران ابناء عمي من السقاية وتكفيها مؤونة جر الدلاء ...

فقال الشيخ علي في رفق :

— قل ان شاء الله واصلح نيتك يا حاج صالح . واذا اردت ان ييسر الله لك امرك ويضاعف رزقك فلا تبن لبنة قبل ان تذبح على نية الخير ذبيحة تطعم منها فقراء القرية .

فضحك الحاج صالح ضحكته الماكرة وقال :

— منذ كم ما ذقتَ لحم الذبائح يا سيدنا الشيخ ؟ هل تحسب هذه بكرة يديرها ثور يأكل العشب حتى اذبح لها ذبيحة ؟ هذا موتور من الفولاذ يشرب المازوت . هل تعرف المازوت ؟ انه بول الاجانب يا شيخ علي !...

— استغفر الله واعوذ به . الذبيحة يا حاج صالح تدفع القضاء والبلاء عن مالك وعيالك وتستر بناتك وتقي ولدك الوحيد

الشرور .

وانصرف الشيخ علي وهو موقن بان ليس للايمان من اثر في قلب الحاج صالح . ان افقر فلاح في القرية لا يقدم على ان يرفع دلواً واحدة ببكرة جديدة اذا لم يذبح نعجة يُنهب الفقراء لحمها ، فكيف يطمع الحاج صالح بان ييسر الله امر آلته هـــذه اذا لم يتصدق على الفقراء ، والشيخ علي منهم ، بلحوم عجل سمين على الاقل ؟ ولذلك كان وقوف محرك الحاج صالح بعد تركيبه واعياؤه المعلم الأرمني امراً غير مستغرب عند الشيخ علي . فكان يدور في القرية ويقول للفلاحين المتسائلين عما جرى لمحرك الحاج صالح :

ـ اطمئنوا يا اولادي . لن يسيل الماء في ساقية الحاج صالح قبل ان يسيل دم الذبيحة على حافة بئرها وتتلطخ به حدائد آلته .

فكان الفلاحون يهزون رؤوسهم مصدقين مـــا يقوله الشيخ مؤمنين بما ينقله اليهم من عقائد آبائهم الأولين .

وهكذا مضت ثلاثة ايام على آلة الحـاج صالح العجيبة وهي كبغلة مختار السمرة الحرون يدق محركها بضع دقائق متلاحقة ثم لا تلبث الدقات ان تتباعد ثم تتقدم . اما الحاج صالح فكان يكاد يخرج من جلده غيظاً وهو يرى ان الشيخ علي قد جعله مضغة في الأفواه ، ويلحظ بسمات الفلاحين الهازئة ويسمع انين بكراتهم ودبدبة ثيرانها رائحة جائية وهي تملأ دلاءها من النهر وتفرغها في السواقي بينما كان محرك آلته ابكم ، ومضختها مقعدة ، وساقيتها تميل الريح ترابها من الجفاف . وكان في هذا التأخير الذي اصاب المحرك غير شماتة الاعداء موت الزرع وهدر ما انفقه في الأرض الظامئة .

فاخذ يحدث نفسه هل ينزل على ارادة هذا الشيخ اللعين فيذبح الذبيحة التي دعاه اليها ام يقصد المدينة فيدعو بثمن تلك الذبيحة معلماً آخر غير هذا الأرمني الخائب ليرى ما الذي يعوق المحرك ، وهو جديد ، عن الدوران ؟ لقد كان في اعماق نفسه يكاد يؤمن بان آلته لم تسر لأن الدم لم يسل في ساقيتها . ولكنه لم يرد النزول عن كبريائه ، فاعتزم بعد ان اغاظ القول لستراك ان يذهب غداً الى المدينة في نشدان معلم آخر .

وفي صباح اليوم التالي بكر الحاج صالح قاصداً المدينة ليأتي بالمعلم الجديد الذي سيكلفه نفقة جديدة ، ولكنه سيشفي غيظ نفسه ويرفع عنه شماتة الشيخ علي واستهزاء أهل القرية . وكان الدرب من القرية الى الطريق العامة طويلاً وعراً تقطعه سواقي البكرات ، فكانت فرس الحاج صالح لا تستطيع ان تجاري في السرعة جيشان صدره من الغيظ ورغبته في نهب الارض الى المدينة ، بل كانت تزيد حنقه ببطئها وبوقوفها عند سواقي جيرانه اللأى ماء كان يذكره بساقيته الجافة على عرضها واتقان صنعها . وظلت فرس الحاج صالح تتخبط به زمناً طويلاً وهو يدير في نفسه غيظه مما جرى ونيانه فيما يأتي . وفجأة انتبه اذ تناهى اليه صوت حاد متقطع ومتلاحق . انه صوت المحرك يحاول هذا الارمني الغبي ان يديره مرة أخرى . تالله ليطردنه عند رجعته من المدينة دون ان يعطيه فلساً واحداً من أجره . واستمر الحاج صالح في سيره وهو يسمع دقات المحرك تتتالى بسرعة ويترقب أن تتباطأ كعادتها لتنعدم في النهاية . ولكن تلاحق الدقات ظل على حاله مدة لم

تعد قصيرة ، فكيف استطاع ستراك أن يطيل عمرها الى هـذا الحد ؟ سيقف المحرك اليوم بعد قليل ، اما في غد حين يأتي المعلم الجديد فسيظل دائراً ، دوماً ، ليل نهار . وستنشق مبراة الشيخ علي غيظاً،ويموت اهل قرية السمرة جوعاً . واستمر الحاج صالح في سيره . عجيب ! ان دقات المحرك لا تزال موزونة متقاربة . أترى الارمني الخائب قد اهتدى الى السر في وقوف المحرك ؟ ووقف الحاج صالح دابته ليستمع بينما كانت اساريره تنطلق والفرح يدب الى نفسه ،وهو يصغي في هذا الصباح الى الصوت المعدني يمزق الفضاء ويرن نسيج وحده بين انين بكرات قرية السمرة الذي كان يدوي في اذنيه كنعيق الغربان . لقد قصر الله خطاه وأغناه عن جهد جديد ونفقة جديدة ، فهذا محركه ، كما يبدو من دقاته المتلاحقة باستمرار ، قد أصبح يدور بلا انقطاع . وثنى عنـــان فرسه متهلل الاسارير ، مرح النفس ،مسرعاً نحو القرية .

عاد الحاج صالح الى القرية . وفي طريق عودته مر مرة أخرى على سواقي البكرات المليئة ماء ، فلم تحرك هذه السواقي من غيظه ما حركته في الذهاب . ذلك لأنه كان يرى بعينه دخان المحرك ينقذف في دفقات من فوهة الانبوب الذى كان يعلو بنـــاءه، فيحدث نفسه بأن كل ما بيته من نية وبناه من امل على هـذه الآلة سيتحقق قريباً . قريباً سيشفي غيظه من مبغضيه ويفقأ عيون حساده . وداوت في صدره المنى عن اليوم الذي تكون فيه كل هذه الارض التي تسير فيها سواقي البكرات له ، له وحده ولابنه حميد بعده ؛ ليس فيها شيء لهؤلاء الفلاحين الذين سخروا

من محركه اياماً ثلاثة متتالية ولا للشيخ علي الذي يريد بسحره المدسوس في كتبه الصفر ان يوقف دولاب المحرك من أجل قطعة اشتهاها من لحم ذبيحة .

وبلغ الحاج صالح ساقية المضخة العريضة فتلقته يتلاطم الماء بين حوافيها، فاثلج ذلك صدره وهو الذي اكتأب في هذا الصباح لرؤيتها غبراء جافة . فأخذ يدير في خاطره الوان السخرية التي سيأخذ بها الشيخ علي حين يلقاه بعد قليل : ألم تكن تزعم يا شيخ علي ان الماء لن يسيل في الساقية حتى يسيل فيها دم الذبيحة ؟من اين جاء مـــاء الساقية هذا يا شيخ علي ؟!.

ووصل الحاج صالح الى بناء المحرك ، فرأى الناس من أهـل القرية قد ازدحموا على الباب نساء ورجالاً وهم ضجة تغطي على دويّ المحرك . ارى عمل المحرك باستمرار يهمّهم بهذا القدر ؟اذن فليموتوا بغيظهم ! وترجل عن فرسه فالتفت الجمع اليه بوجوههم وقد خيّم عليهم سكون مفاجيء . لقـد كانت وجوههم كامدة ، وعيونهم تنطق بامر غريب . وتقدم الحاج صالح فتباعد المجتمعون في صمت عن الباب تاركين له اليه ممراً . وكان امام الباب يقف الشيخ علي عابس الوجه باهت النظرة . فصاح بـــه الحاج صالح متشفياً يكاد يطير من المرح :

ـ كيف دار المحرك يا شيخ علي ؟ هل سال الدم ؟

فمدّ الشيخ علي يديه فبدتا ملوثتين ببقع حمراء قانية وقـال بصوت خفيض ونغم أجش :

- نعم يا حاج صالح . قد سال الدم ...

فاستشاط الحاج صالح غيظاً وقال وهو يهز الشيخ علي من منكبه بعنف :

ـ ماذا ذبحتم ؟ من اذن لكم بذلك ؟ من ؟

فلم يقاومه الشيخ عليّ بل استسلم اليه وهو يهزه ثم قاده الى ظل الجدار حيث كانت كومة ملقى عليها رداء مقطع . وقال له بهدوء :

ـ تجبر الله يا حاج صالح بابنك حميد . علق ثوبه بدولاب الآلة فقتله ...

*

ما كان لحادث في الوجود ان يهز الحاج صالح هذه الهزة المريعة وان يقذفه في خلقه وسيرته من قطب الى قطب ، غير هذا الحادث الذي فقد فيه وحيده والبؤرة التي ركز فيها حبه وامله وصبابة عواطف الخير في طباعه . وما كان اعظمه من تحوّل ذاك الذي طرأ على الحاج صالح فجعله يخادن الشيخ علي ويصطفيه نجياً ويقطع برأيه ويقف امامه في كل أمر مكتوف الذراعين والارادة . فقد كانت هذه الفاجعة من العنف والسرعة والاحكام بحيث اهتز لها الشيخ علي نفسه إذ ما كان يتوقع ان يسيّر الله الامور على هذا النحو المريع في هذه الفترة القصيرة . حتى المعلم الارمني الذي لا يكاد يفقه شيئاً من اقاويل اهل القرية وجد نفسه غارقاً في الدهشة اكثر منهم . ذلك لانه ادرك العجيبة في هذا الحادث اكثر منهم جميعاً . فان الحاج صالح كان قد اسلم امره للشيخ عليّ وهو ، في قرارة نفسه ، يكاد يقر له بسلطان

كسلطان السحرة او المتصلين بالجـــان . امـا اهـل القرية فكانوا يرون فيما جرى كرامة للشيخ عـــلي المسكين ومصداقاً لما تناقلوه من معتقدات آبائهم بان حدثاً جديداً لا يتيسر امره الا بقربان مدمى . امـــا الشيخ علي نفسه فكان يسبّح الله ويتفكر في سرعة بطشه وانتقامه من كل جبارٍ عنيد . الا ان « ستراك » ذاك المعلم الأرمني كان يعجب للطريقة التي سار بهـــا المحرك بعد مقتل الصبي حميد وحيد الحاج صالح وسيلان دمه على حدائد المضخة وفي ساقيتها . ففي الصباح حين توجه الحاج صالح الى المدينة ليأتي بمعلم جديد اراد ستراك ان يحاول محاولة اخيرة في ادارة المحرك . وقد فعل ، فدارت آلاته كعهده بها في بدء العمل وانصرف هو يطلّ على اجزائها وينحني متفقداً عله يقف عـلى السبب الذي يحول دون استمرار المحرك في الدوران . ولم يكن منتبهاً الى ان ابن الحاج صالح ، ذلك الصبي المدلل الذي ما جاوز الثانية عشرة قد تسلل الى وراء المحرك بثيابه الفضفاضة يتأمل دواليبه الدائرة بسرعة هائلة . وفجأة سمع المعلم الأرمـني صيحة مريعة علت على ضجيج الآلات اعقبها صوت اصطدام باحد الجدران وقرقعة محطمة . فلما هرع الى قريب من الباب الذي يصل بين المحرك وساقية المضخة رأى على الارض كومة من اللحم عارية من الثياب مهشمة مدماة اختلط فيها اللحم بالعظم هي التي كانت قبل ثوان « حميد » صبي الحاج صالح الوحيد .

كل ذلك جرى بسرعة البرق فاخذ على ستراك عقله وحواسه . فلما اجتمع الناس عليه وعلى الجثة المهشمة انتبه الى ان المحرك

لا يزال دائراً ، دائراً بانتظام منذ أمد طويل وهو الذي لم يستمر قبل ذلك على الدوران اكثر من دقائق معدودات . واستدار حول المحرك ليرى المكان الذي قتل فيه الصبي ، فراعه ان رأى تحت محور الدولاب الكبير ، بين هذا المحور وقاعدة الاسمنت التي يستند عليها ، قطعة حمراء من عظم ولحم ممزق علقت بها اصابع خمس . تلك كانت ساعد المسكين حميد عالقة بين المحور والقاعدة قد رفعت المحور عن القاعدة قدر اصبع ، وهو القدر الذي كان يعوزه قبل الآن ليكون سوياً وليعمل المحرك عملاً منتظماً دائماً . .

واذا كان المحرك قد توقف حين رفع ساعد الصبي المهشم ما بين محور الدولاب الكبير والقاعدة ليدفن مع بقية الجثمان الممزق ، فانه — اعني المحرك — عاد بعدئذ الى الدوران دائباً دون توقف حين زيد سمك القاعدة قدر ثخن ذلك الساعد . واذا كانت ممزق الثياب ومزع اللحم قد جمعت بين اجزاء المحرك وزوايا بنائه فان بقع الدم ظلت تصبغ بلونها الخائل دولابه وتلطخ فوهة الساقية المريضة مذكرة الحاج صالح واهل قرية السمرة وستراك الأرمني ان الماء لم يجر في تلك الساقية الا — كما قال الشيخ علي — بعد ان سال فيها الدم ! .

ساعة الملازم

•

كان الملازم ممدوح ، ضابط العشائر ، صديقي ولكن الطريق اليه كانت طويلة . فان مقره في الثكنة كان يبعد عن البلدة مسافة ليست هينة من الارض المفروشة حصى في ذلك النهار القائظ . ومع ذلك فان البدوي الذي صودرت جماله وجاء يرجوني المعونة لم يعذرني ، فلم اجد بداً من ان أقصد صديقي الملازم في حر الظهيرة ، فقصدته ، ووجدته في الثكنة اكثر ضيقاً بالحر الخانق مني به في البلدة ، فان ظلال البلدة على قلتها كانت ثخينة باردة اما في هذه الثكنة التي جدرانها من الوحل الرقيق واسقفها من صفائح التوتياء فان الحرّ كان يتسرب منها الى الاجساد كتسرب الماء من غربال . والقيت بجسمي على مقعد في مكتب الملازم ممدوح الى جانبه ، بينما راح هو يستمهلني الى ان يفرغ من كتابة حاشية له على عريضة مزقة . ولم البث ان قمت من مكاني ودلفت الى الجناح الذي كان يسكنه صديقي الملازم . وكانت له غرفة في ذلك الجناح فيها من الفوضى ما في غرفة كل عزب متبرم بسكنه . واذا احس بي في غرفته صاح :

ـ تسلّ بما بين يديك من كتب ريثما افرغ من هذه الاوراق.

وكان على المنضدة خليط من الكتب والمجلات . ورأيت فوق احدى المجلات المصورة ساعة جيب ذهبية معلقة بها سلسلة ، مددت اليها يدي لاتناول المجلة من تحتها فاحسست ان لها ثقلاً غير عادي . ولفت انتباهي ان حجمها كان يفوق الحجم المألوف لساعات الجيب فصحت بالملازم من مكاني :

ـ اي ساعة هذه التي تملكها يا صاحبي؟ انها تحتاج لحامل خاص. حامل ساعة الملازم مثل حامل ختام الملك ....

فاجابني من مقره :

ـ هـــذه ملكة الساعات في ايامها . دعها وابحث لك عن كتاب يعجبك .

فلم اتركها بل اخذت اقلبها بين يديّ . وفتحت غطاء وجهها فلاحت لي ميناؤها وقـــد رسمت ارقام الساعات عليها بالارقام الهندية، وناب حرفان افرنجيان متقاطعان مرسومان عليها عن اسم المصنع . ثم فتحت غطاءها الخلفي فرأيت على بطانة الغطاء الذهبي بالانكليزية هذه الكلمات :

اوسكار بيري

من

ماجي

١٩٠٣

فخيل اليّ وانا اقرأ هذه الكلمات اني فتحت نافذة من الزمن الغابر حين فتحت هذا الغطاء الذهبي . ولم اتناول كتاباً او مجلة

بل ظلت اتطلع في هذه الاحرف المنقوشة على الغطاء كانما كان في كل حرف منها كتاب مفصل .

اوسكار بيري ... ماجي ... وساعة ذهبية هائلة اشريت منذ خمسين عاماً ... منذ خمسين عاماً كانت هذه الساعة الضخمة حلية الشباب الانيق ، فمن يكون اوسكار بيري الذي حمل هذه الساعة من عام ١٩٠٣ .. اني اكاد استقري سمانه من اسمه . ان له القامة الفرعاء والبنيان الوثيق والعين الزرقاء الصافية التي يوحيها اسمه السكندنافي : اوسكار . وله الخلق الدمث والنفس المرحة والروح المتعطشة الى اللهو والحب التي ينطق بها لقبه الفرنسي : بيري . ان فتى له روعة شباب اوسكار بيرى جدير بان تشغف به الغانيات حباً وان يدسن له كبرياءهن ، وبدلا من ان يتقبلن منه التقدمات ان يقدمن له هداياهن كما فعلت هذه الحسناء اللعوب التي نقشت على الغطاء الذهبي اسمها الحلو كجسمها : ماجي ... تدليلا من مرغريت ...

وكان حر الظهيرة في غرفة الملازم بمدوح يخترق جدرانها وسقفها التوتياء فيعقد حول كل ما فيها ، وانا بين من فيها ، ابخرة ودخانا . وكانت اشعة الشمس المحرقة المتسربة خطوطاً من شقوق الباب وفرج النوافذ ترتسم في ومضات على غطاء الساعة الذهبي المنقوش فيبدو لي كانه افق بعيد تتلاعب فوقه في الظهيرة امواج السراب . وكان رأسي من الحر في دوران ، وعيني من الوميض في بهرة ، فخيل اليّ في السكون المطبق والحر المخدر ان ما تخيلته من معان للاسمين المنقوشين على الغطاء الذهبي قد

تجسمت واني ارى في سراب الوميض الذي يبدو لعيني ، بين اجفاني المنطبقة نصف انطباق ، اوسكار بيري وماجي يروحان ويجيئان ويتبادلان الحديث ويرويان قصتهما بل يعيشان في بيئة كانها بيئة الاحـــلام ، وانا في مجلسي كحالم به اثارة من وعي يدرك ان ما يراه حلم في منام ولكنه لا يستطيع ايقاف مجراه ، ولا الحيلولة بين نفسه وبين الايمان بما يراه ...

— ١ —

اوسكار بيري فتى اشقر مديد القامة يرى كل الناس في عينيه الصافيتين صفاء خلقه ورفاهية نفسه التي نمت في حيـــاة طبقته الموسرة في المجتمع اللندني . ولكن مرغريت وحدها كانت ترى في عينيه اعماقا غـــير التي تتبدى لعيون الرائين من اصدقائه ومعارفه . كانت مرغريت ممثلة مبتدئة في مسرح البلاديوم التقت باوسكار في ساعة باسمة من احدى ليالي لندن العابسة فاصبحت صديقته . وجمعت بينهما عاطفة رقيقة كروحها ، عميقة كاغوار نفسه . وكانت كل الحجب التي تنسدل على مشاعر اوسكار بيري ترتفع اذا التقى بمرغريت ، او ماجي كما كان يدللها ، فيبدو حينئذ على حقيقته شابا قليل المثال بين الشباب الذين يحيطون به ، بآمال لا تمت الى محيطه اللندني في عام ١٩٠٣ بشيء ، وانما هي تحوم في آفاق غريبة عن افق الارستقراطية البريطانية والنشاط الصناعي في احواض الفحم والحديد ، وبنفسية ليس فيها من نفسية الشباب الوارثين شيء وانما هي مزيج من العمق والاستخفاف ، والتصميم والسخر ، كتلك التي ترتسم في حديث مركتشيو عن جراحـــه

ورثائه لنفسه في المشهد الاول من الفصل الثالث من مسرحية روميو وجولييت. وفي ذات ليلة، بينما كان اوسكار بيري يصحب مرغريت الى بيتها في الجانب الفقير من احياء لندن سألته ، وقد راته كعادته يحاول ان يخترق بعينيه ضباب لندن ليرى النجوم البراقة فوقه :

- ما الذي يجذب عينك الى اعلى ... دوما الى اعلى ...

فلم يجب اوسكار غير ان نظر الى اعلى ... الى اكثر علوا من قبل . فسالته في فضول المرأة اذا تحداه المجهول :

— هل تبحث عن نجمك ؟

فضحك وقال :

— هـــذا الضباب البغيض يحول بين عيني وبين ما تريد . لو رأيت يا ماجي النجوم في الشرق ..

فرددت ماجي كلمته الاخيرة في همس : الشرق ؟ ...

قال :

— نعم .. السماء يا عزيزتي في مصر شفافة في زرقة ماء الغدير الساكن . وهي فوق دمشق كانها قبة من بلور اخضر . وسماء اليونان شفافة وداكنة في آن كانها الفيروز ..

فرددت ماجي مرة اخرى كلمته الاخيرة في همس : الفيروز..

قال : هذا في النهار، يا ماجي العزيزة، اما في الليل فان سماء الشرق واحدة. فانك ترينها فوق ابي الهول ومآذن دمشق والاكروبول قطيفة زرقاء منثورا عليها ازهار الياسمين . ياسمين سوريا . هـل تحبين رائحته ؟

فقالت ماجي كالمسحورة :

ما اعـــذب ما تقول يا عزيزي ! دمشق ... ابو الهول ... الياسمين ... ما احلى ان يعيش الانسان في الشرق !.

قال :

ـ نعم ولذلك ساعود اليه غدا .

فرفعت ماجي رأسها مروعة ، وكان ملقى على كتف اوسكار في عربته التي تقلها تلك الليلة ، وهتف :

ـ غداً ؟ ...

ـ ليس غداً بالذات ، ولكن في ذات غد ، غد قريب .

ـ ما اقسى قلبك يا اوسكار .. هل تذكرني هناك ؟

فتطلع الى عينيها من ظلام الليل وحدّث نفسه انه يبحث عن النجوم في غير مظانها ، ذلك لان عيني مرغريت كانتـــا نجمتين كازهر ما تكون النجوم واشدها وميضاً . فلم يملك نفسه ان قبّل اجفانها قبل ان يفتح لها باب العربة لتنزل وهمس في اذنها :

ـ الى الغد !

فرفعت ماجي يدها وشيعت العربة وهي تدير في صدرهـــا كلمته « إلى الغد » في مزيج من الكآبة والخوف والترقب .

ولم يلبث الغد القريب ان جاء . ولما كانت ماجي تعلم ان ليس لها مكان بين من لهم الحق في تلويح المناديل لاوسكار بيري وهو على ظهر السفينة فقد كان وداعها له في عربته في طريقها الى دارها . لقـــد التصقت به تلك الليلة والقت برأسها الدقيق على منكبه وهي تتنفس في عمق كانها تتحسر وتتحسر في حرقة كانها

تبكي. ولما ضمها اليه ضمة الوداع احس بيدها تسقط في جيبه شيئاً ثقيلاً فلما اراد ان يتحسس ذلك الشيء قبضت باناملها الدقيقة على كفه ووضعت يدها الاخرى على فمه وقالت له في همس :

– كيما تذكرني ... تحت اشجار الياسمين ...

وانسابت من العربة في خفة . فلما بلغ اوسكار بيري داره فتح علبة القطيفة التي زلقتها ماجي في جيبه فوجد فيهـــا ساعة ذهبية معلقة بها سلسلة من الذهب مثلها بديعة الصنع . وقرأ على غطاء الساعة هذه الكلمات منقوشة بحرف دقيق :

اوسكار بيري

من

ماجي

١٩٠٣

فاحس لقراءتها بان انامل مرغريت الدقيقة تجري على صدره لتهصر قلبه في حنان وحب. فاغلق في هدوء غطاء الساعة ووضعها في اقرب جيب الى قلبه ونام ليستيقظ باكراً ويتهيأ لرحلتـــه الى الشرق .

كان الشرق عند اوسكار في هذه الرحـــلة مصر ودمشق واليونان ، وكانت بغداد آخر المطاف . فقد كانت مصالح احياء لندن التجارية في البصرة تحتاج الى من يديرها ؛ اما في بغداد فقد كان نامق بك الذي عرفـــه اوسكار بيري في دار السعادة ، استانبول ، فكان رفيق صباه. وهو اليوم قائد الآلاي المعسكر شمالي بغـداد ويسره ان يلقي بعـــد فراق سنوات عشر

صديق الصبا . ان الليالي التي كانت تطوف في مخيلة اوسكار بيري في ضباب لندن هي هنا في بغداد على ازهر ما تخيـــل وتمنّ ، وشكراً لنامق بك قائد آلاي الخيالة الرابع فقد ملأ تلك الليالي دعة وحبوراً كما ملأ ايامها رحلات صيد وتجديفاً في دجلة . وكانت ذروة الحفاوة باوسكار بيري ان جاءت راحيل الى معسكر آلاي الخيالة الرابع لتحيي تلك الليالي الساحرة بصوتها الدافيء الحنون ولتفضح نجومه الزاهرة بالق عينيها الحوراوين .

كانت راحيل مغنية يهودية ودرة حفلات الخاصـــة وضباط جيش السلطان في بغداد وحولهـا تلك الايام . وكان نامق بك بين العشرات من امثاله من صرعى فتنتها محظوظاً اذ كانت تجد بين لياليها المزحومة بالاسماء والمناصب فرصة تهرب فيها الى مقر قيادتـــه كانها طير يفر من سهام الصائدين الى مشتبك من الاغصان . فكانت فرصة لنامق بك ان يعرض على صديقه اللندني هذه الفتنة الاسرائيلية . فلما جلست في الليـلة الاولى الى مائدة الشراب امامهما تطلع نامق بك في عيني صاحبه ليرى ماذا يرتسم في حدقتيها لمرأى فاتنته . وكذلك فعل حين تناولت راحيـل العود واخذت تغني بصوتها العـذب اغاني تركية شجية واخرى عراقية مبحوحة النغم . وقد ابدى اوسكار بيري ، كما كان خليقا به ان يفعل ، اعجابه بصوت راحيل في غناء لم يكن يفهمه او يطرب له . ولكنـه في برودة الانكليزي العريق كان يخفي في ثنايا نفسه اعجابه الحق بجمال هذه الصبية الحسناء ذات الوجـــه البيضوي الدقيق والقوام اللدن مسائلاً نفسه كيف استطاعت على

دقة جسمها ولطف اعضائها ان ترضي عيون الناس في هذه البقعة من الشرق حيث تسود الجمال مقاييس من فراهة الجسم واكتناز الاعضاء وثقل الارداف . ولعل هذا التساؤل المحبوء في نفس اوسكار بيري قد اطل ، حينما لعب الشراب بالسرائر ، اطل من عينيه بالقدر الذي اتاح لنامق بك ان يتفهمه . اذ لم يلبث الضابط التركي ان مدّ يده الى كتف صديقه وجره اليه بشدة وهو يقول :

— هيه ، اوسكار ... هل اعجبتك راحيل ؟ ..

فحنى اوسكار بيري رأسه بلطف وهدوء كما لو كان يجيي الليدي اشفل في المقصورة المجاورة لمقصورته في احد مسارح لندن وقال :

— اقدم ...

هذا في الليلة الاولى . اما في الليلة الثانية فان نامق بك لم يكن يتطلع في عيني صاحبه متصيداً اعجابه براحيل بل كان يتطلع في عيني هذه ليرى ما الذي ربط انظارها بمحيا ضيفه الصبيح ، وعينيه الزرقاوين ، وفمه المقوس الدقيق . ولعل الخمرة الوسكي التي حفلت به مائدة الشراب قد صورت له امراً او اوحت له وحياً ، ذلك لانه انتصب بغتة واقفاً وضرب بجمع يده مائدة الشراب ثم رفسها برجله بقوة تطايرت معها الكؤوس وتحطمت الاباريق ثم صاح بصوت مختنق :

— اوسكار . اوسكار . ان راحيل لي ...

فوقف اوسكار بيري في هدوء وتطلع متسائلاً الى الضابطين زميلي مضيفه والى المغنية الحسناء التي تراجعت الى زاوية الايوان

تختلج اجفانها ويرتعش العود بين يديها ، ثم التفت الى نامق بك وحنا رأسه في لطف وفي صلابة بآن واحـــد ، مردداً بتركيبته الانكليزية تلك الكلمة التي كان يستسيغها من لغة الاتراك والتي كان يحملها معاني عديدة تختلف باختلاف المواقف :

ـ افندم !

وكأنه كان يقول للضابط المستشيط غضباً دون سبب معروف : انى اوافقك . راحيل لك يا صديقي ...

ولما طلعت شمس النهار طلعت على نامق بك وهو على رأس سريره ضيفه يعتذر اليه عما فعلت به كؤوس الوسكي ليلة البارحـــة . وقبل اوسكار بيري اعتذاره . ولم يكن امامه ليدلل لصاحبه انه قبل ذلك الاعتذار بنفس رضية الا ان يحضر معه ومع راحيل ليلة شراب أخرى . وكانت ليلة مضطربة رغم كل ما قيل في اولها ، فقد كانت نفس الانكليزي مشمئزة وراء هدوئه وتعليقاته على احاديث نامق بك . وكانت نظرات راحيل قلقة لا تكاد تستقر على محيا مستر بيري حتى ترتد عنه في اضطراب . ولم يكن شيء على ما كان عليه في الليالي الاولى الا كأس نامق بك من الوسكي فلم تكن تفرغ إلا لتمتلىء ولا تمتلىء الا لتفرغ . وفي لحظة تبرم من هذا الجو المشحون بالتوتر الكامن والهدوء المصطنع مدّ اوسكار بيري يده الى جيب صداره واخرج ساعته الذهبية ليتطلع فيها .

فامتدت فجأة يد نامق بك عبر المائدة وقبضت على الساعة في شدة . وكانت حركة سريعة ومفاجئة ومصحوبة برنين من الكؤوس المثقلبة على المائدة بصورة اعادت الى الاذهان ثورة البارحة . الا

ان اوسكار بيري كان مسيطراً على عصبه ففك في هدوء سلسلة الساعة من صداره وقدمها ، في بساطة ، الى نامق بك .

ضحك نامق بك ضحكة عصبية وهو يقلب الساعة في يده ثم يفتح غطاءها ، وقرأ بصوت مرتفع الكلمات الانكليزية المنقوشة على غطاء الظهر ، ثم ردد تلك الكلمات :

اوسكار بيري

من

ماجي

١٩٠٣

وقال :

ـ ماجي ... من ماجي هذه يا عزيزي اوسكار ؟

ـ ماجي اسم التدليل لمرغريت ، وهي صديقة لي .

ـ صديقة لك يا اوسكار ؟ .. مثل راحيل تعني ؟ ..

فسكت اوسكار بيري هنيهة لمعت في ذهنه اثناءها صورة ماجي ذات النفس الرقيقة ، وقال لنفسه : اليست كراحيل ؟.. ولم يستطع ان يجد الجواب على سؤال نفسه ولا على سؤال نامق بك فاستمر في سكوته . اما نامق بك فقد ضحك من كل قلبه ضحكة عالية لم يلبث ان قطعها وقال في جد :

ـ اسمع يا اوسكار . قد تكون ماجي هذه التي تحمل اسمها قريباً من قلبك خطيبتك او ابنة عمك ، ولكني ساعتبرها اليك كاعتبار راحيل اليّ : صديقة عزيزة .

وسكت قليلاً ، فاومأ اوسكار برأسه موافقة لعل نامق بك

يأخذ بغير هذا الحديث . الا ان قائد آلاي الخيالة الرابع رفع صوته من جديد وقال :

ـ يا صديقي اوسكار بيري ... لقد جرحت امس عواطفي حين بدر منك نحو راحيل ما ليس لك حق به . فلقد تطاولت عليهـــا .

فابتسم اوسكار بيري وقال :

ـ ألم نصفّ هذا الحساب صباح اليوم يا عزيزي ؟

ـ لا تزال هناك بعض الشوائب . اني اسمي تطاولك عـلى عزيزتي راحيل اهانـــة ، فاسمح لي ان اتطاول عـلى عزيزتك ماجي فاهينها ..

فقال اوسكار بيري وهو يوطن نفسه عـلى سماع المزيد من هذا الضابط الذي لعبت الخمر برأسه :

ـ لك ذلك يا صاحبي .

فاحتد نامق بك وصاح :

ـ اليس بين اجدادك فرسان يا اوسكار بيري .. اذا حاولت ان تتهرب من مستلزمات اهانة صديقتك فانا لا افعل . هذا خصام لا يفضه الا الدم .

ـ افندم ؟..

ـ اقول لا يفضه الا الدم . يجب ان ترد على اهانتي بطلبي للبراز .

فابتسم اوسكار بيري في هدوء مبطن بالقلق وقال :

ـ سنبحث هذا الامر غدا يا صاحبي . والان طابت ليلتكم .

وقام يريد التخلص من هذه الورطة بالانصراف ، إلا ان نامق بك صاح :

— الى اين يا مستر بيري . اذا لم تطلبني للبراز فانا اطلبك ولك ان تختار السلاح ، وهذان الشاهدان .

وتوجه الى الضابطين اللذين كانا الى جانبه وقال :

— عثمان بك ... جلال الدين بك ... اسألا هذا السيد عن السلاح الذي يريد مبارزتي به ...

وكانت ليلة سوداء وجد اوسكار بيري نفسه فيها مسوقا الى مبارزة هذا السكير الارعن الذي اطلق الوسكي جنون غيرته الباطلة من عقالها . فسار لا يكاد يعي مع مضيفه وغريمه والضابطين الشاهدين الى شاطيء النهر حيث كانت ارض فضاء تقوم بينها وبين مقر قيادة الآلاي الرابع مجموعة من اشجار النخيل . وكان الليل في آخره ، تكاد تلوح من الشرق فيه مطالع نور الفجر الابيض . وفي الغرب فوق رؤوس النخيل كانت تلمع النجوم لمعانا منقطعا كانها تُريق به اخر ما في آنيتها من السنا . تطلع اوسكار بيري الى السماء ثم عبّ من النسيم البارد ملء صدره وزفره بشدة كانما اراد ان يزفر معه مزعجات هذه الليلة ، ولكن صوت جلال الدين بك نفذ الى سمعه فجأة فرده الى ما اراد التخلص منه .

— مستر بيري ، ادر ظهرك لنامق بك . ليسر كل منكما في اتجاهه عشر خطوات . واحد اثنين . ثلاثة ... عشر خطوات .. قف .. الى الوراء .. در !

فدار مستر بيري ودار معه نامق بك حتى تواجها ، تفصل بينهما

عشرون خطوة . وانطلق من جديد صوت جلال الدين بك :

ـ الضربة الاولى من حق مستر بيري . حينما اقول : واحد ، يطلق مستر بيري ، اثنين ، يطلق نامق بك . والآن تهيأ !

احس اوسكار بيري انه يرفع يده بصورة آلية ليسددها نحو نامق بك . وكان في ذهنه ان كل ما جرى الليلة عبث ودعابة .. اما هذه المهزلة من اخر .. وفجأة خيل اليه ان يد ماجي ذات الانامل الدقيقة تمر على شفتيه وان ثغرها اليانع ينفث في اذنه :

ـ كيما تذكرني . تحت اشجار الياسمين ..

وتطلع الى ما حوله في نظرة سريعة فلم يجد غير اشجار النخيل ، فتنهد ..

ـ واحد

واطلق الرصاصة ..

ولم يقل جلال الدين بك : اثنين لان يد نامق بك لم تعد ترتفع لتحمل مسدسه اذ حطمت رصاصة الانكليزي كفه .

وتحامل نامق بك على نفسه سائرا الى مقر القيادة ومستندا الى ضابطيه بينما سار وراء الثلاثة اوسكار بيري وهو يمسح جبينه ليقنع نفسه بان كل ما جرى في هذه الليلة كان حقا لا اضغاث احلام .

ايقن اوسكار بيري في الصباح ان كل ما جرى امس كان واقعا لا مراء فيه حين حجزت حريته وحبس حتى ينظر في امره خليل باشا سرعسكر السلطان وقائد قواته في العراق . وكان ضباط الحاميات المجاورة يتميزون غيظاً من جرأة هذا الانكليزي

على الضابط العثماني واطلاقه الرصاص عليه ، في حين لم يكن احد يقدر ظروف الحادث حق قدرها. وفي موجة الحماس والحنق كانت الرغبة في ان يصار الى عقاب هذا الوقح عقاباً سريعاً حاسماً قبل ان تتدخل ايدي الساسة في الأمر فتحيل ناره برداً وسلاماً. وكان حظ اوسكار بيري اسود ومستقبله قاتماً . فان الضابطين اللذين كانا شاهدي البزار اضاعا روح الانصاف في عاصفة الغيظ التي اجتاحت العسكريين. اما راحيل فكانت بغيّاً يهودية لا يُطمع منها بمبادرة خير ومن كانت بجانبه احبطت ميزانه. وحتى الساعة ساعة ماجي ، لم تعد الى صدر اوسكاربيري قريباً من قلبه بل اختفت . ذلك ان الجندي عبد الرحمن وهو مراسلة نامق بك الذي التحق بخدمته في دمشق كان وجد الساعة الذهبية على المائدة في اعقاب تلك الليلة المزعجة فوضعها بين المرج والمرج في جيبه ... الساعة الذهبية ، ساعة ماجي المهداة الى اوسكار بيري عام ١٩٠٣ .

***

كما يتلاشى عالم بكامله حين تضيء الانوار في دار السينما، تلاشت من مخيلتي ، بل من امـــام عيني ، الصور التي رأيتها منتظمة في الحروف المنقوشة على غطاء ساعة الملازم ممدوح، حين احســت بان الملازم نفسه اصبح وراء ظهري . وضع يده على كتفي وقال :

ـ اطلت عليك يا صاحبي . هل انت نائم ؟

فرفعت اليه الساعة لاريه اني كنت اتأملها . فقال :

ـ هل اعجبتك . . هذه ساعة جاء بها ابي يوم كان ضابطاً في الجيش العثماني .

فوجب قلبي وأحسست في مزيج من الدهشة والرهبة احساس من رأى حلماً بعيد المنال في ليله وشهده في الصباح يتحقق . هتفت به :

ـ ماذا كان ؟.

ـ من ؟ ابي ؟. قلت كان ضابطاً في الجيش العثماني وفي معية قائد الجيش الرابع ، جمال باشا الذي هاجم ترعة السويس . هل سمعت عن حملة الترعة هذه .. لقد كان الاتراك في بلاغاتهم يقتلون كل يوم خمسة آلاف انكليزي ،اما في حملاتهم فقد كانوا يتراجعون خمسة آلاف متر كل ساعة .. وعاد جيش السلطان بالهزيمة ، اما ابي فقد عاد معها بهذه الساعة .

فضحكت في فتور بيني وبين نفسي . وتبادر الى ذهني انني تركت اوسكار بيري في السجن ينتظر مصيره المعلق بين شفتي خليل باشا ، قائد الجيش العثماني في العراق . ولكن هذا الملازم ممدوح يمسح كل هذا الذي رأيته بكلماته الاخيرة .

ورنّ جرس الهاتف في مكتب الملازم فهرع اليه وهو يقول:

ـ ساعود اليك بعد لحظة .

وكانت الساعة الذهبية لا تزال في يدي ، ففتحت غطاءها مرة أخرى فلاح لي اوسكار بيري منتصباً بين حروف اسمه المنقوشة على الغطاء . انه هو . قد لا يكون في سجن خليل باشا .. وقد لا يكون مهدداً بالشنق . او الموت في غياهب السجون ، ولكنه في كل حال شخص بعينه ، واني اراه ...

وعدت الى التطلع في الحروف المنقوشة والى قراءتها مرة أخرى :

اوسكار بيري

من

ماجي

١٩٠٣

— ٢ —

الليل ساكن عميق السكون . والسماء سماء ، هذه الليلة من من الشتاء، صحو الا من بقايا غيوم بعيدة في الافق الغربي لم تكن ترى ولكنها كانت تحول بين نجوم الافق البعيد وبين عيني اوسكار بيري . اما نجوم قبة السماء فكانت تتلألأ وضاءة فوق ديباجتها القاتمة كانها لآلىء منثورة على قطيفة سوداء في حانوت جوهري في كينجس رود في لندن . لقد كان اوسكار بيري الفتى الاشقر المديد القامة يحدق بعينيه الصافيتين في نجوم الليل وهو مستلق في خندقه على شاطىء قنال السويس وكانه يبحث بين الكواكب المتلألئة فوق رأسه عن كوكب حظه . فوقه كانت سماء مصر في ليلها مثلها في نهارها صادقة صافية تشع نوراً وسحراً . وعن يمينه كان قنال السويس شعاعاً مستقيماً من النور الازرق ملقى بين كثبان الرمال ، وعن يساره كانت تمتد الصحراء ، صحراء سيناء ، ووراءها اجيال من التاريخ والوان من الحضارات مودعة عناوينها ورؤوس اسفارها في زوايا مكتبة بودليان في اكسفورد ، ولكنها هنا خلف هذه الكثبان حية حياة تكاد تنبض بها حبات الرمال وقطرات المياه . ما اعظم شوقه الى العالم الذي تقود اليه هذه الصحراء وأي رغبة يحسها في نفسه

وتذكيها انوار النجوم الى ان يطبع على رمال سيناء آثار قدميه في طريقـــه الى اورشليم ... ولكن « مارس » واقف له بالمرصاد ... وبينه وبين اورشليم العدو التركي ، وما مقامه ، هو الكبتن اوسكار بيري قائد السرية الثالثة من فرقة الرماحة الاولى ، على الضفة الشرقية من قناة السويس الا ليكون ديدباناً على هذا الشريان الحيوي من مواصلات الامبراطورية ، وعيناً لا تنام ترقب حركات جيش جمال باشا وحملته التي تحدثت المخابرات السرية بانها وشيكة الوقوع على الترعة ، تقدمت او كادت .

وتطى بيري وهو في استلقائه لا يزال يتطلـــع الى النجوم البراقة فوقه كانها أعين الرقباء ، ثم مدّ يده في حركة آليـــة الى جيب صدره فاخرج ساعته الذهبية منه . وبحركة آلية كذلك فتحها ورفعها الى مستوى بصره . ولكنه لم يلبث ان ابتسم لنفسه حين ادرك ان انوار النجوم لم تكن تكفيه ليرى عقارب الساعة وهو في مكمنه من الخندق . واخذ يتحسس بيده الثانيـة تلك الساعة التي عادت بافكاره الى آفاق بعيدة عن الصحراء واورشليم وجيش جمال باشا الى لندن . واحس بيده تفتح غطاء ظهر الساعة وانه يتطلع الى ذلك الغطاء . وخيل اليه أن النور الذي اعوزه لرؤية عقاربها لم يعوزه لقراءة ما نقش على الصفحة الذهبية فاخـذ يقرأ بصوت عال ، وهو في الحق كان يقرأ من ذاكرته لا ممـــا يراه امامه ، اخذ يقرأ :

اوسكار بـــيري

من

ماجي

١٩٠٣

اوسكار بيري ... من ماجي ... ١٩٠٣ ... ١٩٠٣ ....

انـــه الآن في شهر شباط من عام ١٩١٦ وقد مضى على هذا التاريخ المنقوش على غطاء الساعة ثلاثة عشر عاماً تنقص شهراً واحداً . منذ ثلاثة عشر عاماً تنقص شهراً واحداً لم يكن الكبتن اوسكار بيري غير صبي أتمّ العاشرة من عمره قد ألبسوه في القصر الكبير الكائن في بركشاير لباس الرجل الكامل واخذوا في عيد ميلاده الحادي عشر يحتفلون به كسيد من سادة آل بيري له سمتهم ورزانتهم وامتيازاتهم وعليه واجباتهم واتباع سلوكهم الاتباع الدقيق . بعد عيد ميلاده الحادي عشر هذا ، لم يعد لماري مربيته الاسكتلندية ان تكيل له اللطمات على كفله كلما مزق رداءه وهو يخترق سياج الحديقة الشائك ، ولم يعد لنيكولا ، رئيس الخدم الفرنسي المتزمت ، ان يمنعه من دخول قاعة التدخين في قصر آل بيري حين يخلو بها الرجال من ضيوف القصر بعد الغداء ، بل ان نيكولا بعد الآن سيتقدم بنفسه ويفتح باب البهو بيده وينحني له قائلاً :

— ليتفضل سيدي بالدخول !

انـــه ، اوسكار بيري ، بعد عيد ميلاده الحادي عشر ــ بعض زمرة الرجال بعد ان كبر عن ان يكون طفلاً . والحق انـــه كثيراً ما في عالم الرجال يستهوي اوسكار بيري ويجعله يترقب ليلة ميلاده هذه بلهفة واشتياق ، ولكن الامر كان يتطرق الى فؤاده حين يتذكر ان علاقته بجدته العجوز ستدخل في طور

جديد . اصحيح ما لقنته مربيته من انه لن يستطيع بعد الان ان يثب على ركبتي جدته او ان يدعوها باسمها القريب من قلبه : جدتي ماجي ؟ . وان عليه ان يناديها دوماً في حضورها «يا سيدتي» ، وان يذكرها دوما في غيابها بسلسلة طويلة من النعوت : ليدي مرغريت هارتسموث اف بيري ؟ .

واستمر الكبتن بيري يستعيد ذكرياته عن حفلة عيد ميلاده في آذار عام ١٩٠٣ ، كانت حفلة رائعة تكاد تكون كل تفاصيلها مطبوعة في ذهنه كأنها جرت بالامس ، ولولا تهويه وتغلب النعاس عليه ليلتئذ لاستطاع ان يذكر الى اليوم خطبة مربيته اللاتينية بنصها . ولكنه لا يزال يذكر كيف تقدمت جدته اليه ورفعته بين ذراعيها الضاويتين بضع بوصات عن الارض وقبلته ثم تناولت من كيس يدها الجلدي الذي لم يكن يفارقها ساعة جميلة ، ساعة رجل كامل النمو ، يتلألأ تحت اضواء الشمس غطاؤها الذهبي . ولا يزال يذكر كيف اطارت هذه الساعة النعاس من عينيه وكيف قرأ كلمة الاهداء المنقوشة على غطاء الساعة بصوت عال :

اوسكار بـــيري

من

ماجي

١٩٠٣

وكيف نسي في غبطته بهذه الهدية تقاليد اسلافه من آل بيري ، فلم ينحن لجدته باحترام ، ولم يطبع على ظهر يدها المعروقة قبلة تافهة بل احتضنها وهتف بملء قلبه :

ـ شكراً يا ماجي ...

ولا يزال يذكر كيف عبست ماجي في وجهه وهي تقول مصححة اسمها كما يجب ان يرد منذ الليلة على لسان حفيدها :

ـ ليدي مرغريت روزانا هارتسموث كونتس اف بيري.

... حين بلغ الكبتن بيري هذا المبلغ من ذكرياته كانت تباشير الفجر قد بدت من الشرق في ضياء شاحب . فوقف في خندقه واخذ يجيل النظر في الظلام الذي اخذ يبهت شيئاً فشيئاً. وتطلع الى الشرق فخيل اليه ان الافق الذي يعرفه في كل فجر كخط مستقيم عند ملتقى الارض الكامدة بالسماء التي بدأ النور يتنفس فيها ، ان هذا الافق لم يعد سوياً بل تراءت فيه رؤوس ونواتيء . وفجأة غاب كل العالم الذي خلقته الذكريات لاوسكار بيري وانبعث في وجدانه واقعه الحاضر كقائد لفرقة حرس بريطانية على الضفة الشرقية من قنال السويس .. في واقعه هذا ان النواتيء والرؤوس في الافق المستقيم هي العدو ، وان هذه حملة جمال باشا لا بد اقبلت ...

لقد روت يوميات الحرب العالمية لعام ١٩١٦ قصة حملة الترعة الفاشلة بالتفصيل . ولكن في مطاوي ذلك التفصيل ضاعت قصص عدة احداها قصة الكبتن أوسكار بيري وقوته الصغيرة من الرماحة البريطانيين التي تلقت الصدمة الاولى لجيش جمال باشا في الثالث من شباط سنة ١٩١٦ . كان الكبتن بيري يعرف انه في القلة من جنوده لن يستطيع صموداً امام اللجب الزاحف اليه في غبشة الفجر ، والذي خيل اليه انه بين لحظة رؤيته لطلائعه ولحظة ادراكه لمعنى

هذه الطلائع قد ملأ الصحراء المنبسطة امام عينيه رؤوساً لجنود زاحفة في سرعة السيل . فكان همه ، هم الكبتن بيري ، ان يثبت انه لم يؤخذ على غرة ،وان يسرع في اثبات ذلك لتستعد القوات المرابطة على ضفة القناة الغربية للهجوم المفاجيء . وهكذا مزق الرصاص بقايا ظلام الليل من افواه بنادق الرماحة فـــامتلأ جو الترعة وصحراؤها بالنذير ، وبدأت المعركة . واذا كان رماحة الكبتن بيري قد استطاعوا ايقاف الصف الاول من الهجوم المقبل عليهم فانهم عجزوا عن ايقاف جنود الصف الثاني، فقد كان هؤلاء يثبون فوق جثث رفاقهم كالشياطين والحراب على رؤوس البنادق ليقتحموا عليهم الخنادق، فكانت في قاع تلك الخنادق المظلمة معركة لم يكن للجنود البريطانيين ولا لقائدهم مفر من مصيرهـا . ولقد لقوا ذلك المصير. وفي فلول الظلام المنهزم امام النور اخذ الاتراك ورجال مدفعيتهم من حلفائهم الالمانيين يوطدون مراكزهم عـلى الضفة الشرقية ويجيبون على مدفعية القوات البريطانية بحمم من قنابل شربنل ، وكانت بدويها ونارها والموت الزؤام الذي تحمله تمزق في آن واحد السكون والظلام والاجساد .

في تلك الاثناء كان ملازم تركي قصير القامة ذو شاربين دقيقين معقوفين يتنقل وراء الخنادق التي مزقت جثث حماتها متفقداً جنده ، فلحظ ذلك الملازم ان احد رجاله وكان يعرفه جيداً ، وهو احمد آغا المرسيني،قد خرج من احد الخنادق متلصصاً : بندقيته معلق حزامها برقبته وملقاة على ظهره وهو ينقل يديه بين جيوبه كأنه يدحوها باشياء ، فصاح به :

ـ احمد آغا !

فهرع الجندي اليه وقال :

ـ افندم !

ـ ماذا كنت تفعل في الخندق ؟

فكشر احمد آغا عن انيابه في ضحكة صفراء واخرج احدى يديه من جيبه وهي تحمل خليطاً مما في جيوب الجنود: علبة دخان وموسى وادوات افرغ منها جيوب قتلى الانكليز . وبعد ان عاد الخليط الى جيبه مد يده الى عبه واخرج منه ساعة ذهبية قدمها الى الملازم وقد اتسعت فجوة فمه تحت شاربيه المتهدلين في ابتسامة اعرض من الاولى وقال :

ـ هذه تليق بجناب الملازم .

فتناول الملازم القصير القامة ذو الشاربين الدقيقين المعقوفين تلك الساعة وضحك وهو يفتح غطاءها واخذ يتهجى ، في افرنجيته المحطمة ، الكلمات المنقوشة على ذلك الغطاء بالاحرف اللاتينية .

اوسكار بيري

من

ماجي

١٩٠٣

وبعد ان اغلق الغطاء ودس الساعة في جيبه توقف وقد خطر له خاطر : ليست هذه الساعة الثمينة مما يحمله الجنود العاديون انما هي ساعة ضابط مترف فاين جثة هذا الضابط ؟. وصاح في احمد آغا الذي ما زال واقفا ينتظر بقلق ارتسامات وقع هديته على

وجه ملازمه :

— من اين اخذت هذه الساعة ؟

فاشار احمد آغا الى خندق بعيد :

— من كافر ملعون هناك كانت يده يابسة عليها .

— اما وجدت في جيبه اشياء اخرى ؟ اوراقا مثلا ؟.

— لم ابحث في جيوبه يا سيدي .

— دلني على جثة هذا الكافر .

فسار احمد آغا وتبعه الملازم، الا ان العجب ان لا يتعرف احمد آغا على جثة من سلبه ساعته بين جثث الجنود الانكليز التي كانت منتشرة في اوضاعها المفجعة في قاع الخنادق وخلف المتاريس . واعجب من هذا ان لا يجد الملازم اثرا او جثة لضابط بين جثث هؤلاء القتلى ، في حين كان واثقا ما دامت تلك الساعة الذهبية في يده ، انه لا بد من ضابط كان يحمل هـــذه الساعة ويحمل معها معلومات او اوامر اثمن بكثير من التحفة الذهبية التي حملها اليه هذا النفر من فرقته . ولما لم يثمر بحث احمد آغا شيئاً اضطر الملازم ان يعود الى افراد قطعته لا سيما وان القوى التركية اخذت تتهيأ لانزال الزوارق في الترعة لاجتيازها .

ولم تطل معركة الترعة اكثر من يوم واحد . واضطرت حملة جمال باشا الى الانكفاء دون ان يتاح لجمال باشا ان يحمل لقب فاتح مصر . وعاد ذلك الملازم في الجيش التركي مع فلول الحملة وفي جيبه ساعة ذهبية لضابط انكليزي سلبت من جثته على ضفة القتال ، ولم يتمكن ذلك الملازم ولا جنديه احمد آغا من العثور

على جثة الكبتن اوسكار بيري لان ذلك الضابط الانكليزي،وكان قد اصيب اصابة مميتة القته في قاع الخندق بين الموت والحياة ، لان ذلك الضابط ...

***

اضيئت الانوار مرة أخرى في القاعة المظلمة لتصوراتي التي كنت ارى فيها قصة اوسكار بيري تمثل على شاشتها . اضيئت الانوار مرة أخرى حين وضع الملازم ممدوح يده على كتفي وقال لي :

ـ لا تزال هذه الساعة في يدك . هل قرأت ما هو منقوش على غطائها ؟

فرفعت اليه بصري ، وانتظرت حتى استدار وجلس امامي فازحت يدي عن الغطاء ، وكان مفتوحاً ، وقرأت منه :

اوسكار بيري

من

ماجي

١٩٠٣

قال :

ـ هل قلت لك ان هذه الساعة كانت في ملك ابي منذ الحرب العالمية الاولى ؟

قلت :

ـ نعم . جاء بها من ترعة السويس من ضابط انكليزي قتل واعله جرح فحسب ، في حملة القنال .

قال :

ـ ضابط انكليزي ؟ اي ضابط ؟

ـ الكبتن اوسكار بيري من رماحة صاحب الجلالة ملك بريطانيا .

قال :

ـ من قال لك هذا ؟

وسكت قليلاً ثم انفجر ضاحكاً وهو يقول :

ـ اوسكار بيري ! هل ظننت ان لهذا الاسم صاحباً له وجود في الوجود . سأقص عليك قصة هذه الساعة : جاء ابي بهذه الساعة من فلسطين في عودته من حملة السويس في الحرب العالمية الاولى، اشتراها من حيفا بثمن بخس من احد الباعة ولعله ، اقصد ذلك البائع ، كان قد سرقها او اشتراها من سارق . وشببت وانا ارى هذه الساعة معلقة بسلسلتها الذهبية في صدر ابي فكنت ارقب اليوم الذي ابلغ فيه مبلغ الرجال لتكون لي ساعة مثل هذه الساعة معلقة بسلسلة مثل سلسلتها في جيب صدري. وكان ابي ، في طفولتي وصباي ، صديقاً لي فكنت اجرأ عليه بما لا يجرأ به لداتي على اباهم . ففي ذات يوم وكنت قد جزت فحص البكالوريا بنجاح ، تفقد ابي ساعته فلم يجدها . وكان اسفه وتلهفه على تلك الساعة شديدين بقدر ما في صحبتها له من امد وما تذكره به من ايام فائتة . وقد عرضت عليه ، بالحاح كريم ، ساعة يدي لاني انبأته بان لي رغبة باستبدالها بساعة جيب ، فقبل . وفي ذات يوم جئته بنبأ غريب ، فقد وجدت في رحلة لي الى بيروت ساعة مثيلة لساعته الضائعة ، قد انتجها

المعمل نفسه وصاغ حلتها الصائغ ذاته ولعلها خرجت الى السوق في ذات اليوم الذي خرجت اليه فيه ساعته المأسوف عليها. ولولا فارق واحد لما شككت ان هذه الساعة التي وجدتها هي ساعة ابي المسروقة. ولكي أثير دهشة ابي وضعت امامه الساعة التي اشتريتها فتطلع اليها كمن وجد عزيزاً مفقوداً ولكني فتحت له غطاء ظهرها فرأى عليه منقوشاً .

اوسكار بيري

من

ماجي

١٩٠٣

وهي كلمات لم تكن على غطاء ساعته العزيزة ! . وفي رحلة اخرى لي الى بيروت وجدت لهذه الساعة سلسلة كتلك الضائعة كأنما صاغها صائغ الاولى . فكان ذلك في نظر ابي امراً معجزاً اخذ يقصه على اصحابه في نادي الضباط المتقاعدين . بينما كانت الحقيقة ولا اخفيها عنك ، ان الامر كله لعبة مني نقشت بها في بيروت هذه الكلمات على غطاء ساعة ابي من الداخل لاتمكن من حملها دون ان اثير شبهات ابي او احتجاجه .

قلت له :

ـ ولكني اعرف يا ممدوح اوسكار بيري ...

فضحك وقال :

ـ مستحيل . قد تكون عرفت ماجي فانها تلك الارنست المغناربة التي سحرت رواد ملهى الكبيت كات وابتزت اموالهم

منذ بضع سنين . لقد كنت حين حفرت اسمها على غطاء الساعة صاحبا لنوّي من سكرة انكليزية كانت على شرفها . اما اوسكار بيري فهو شخصية من بنات خيال صاحبك الواقف الان امامك.

وسكت ، فسكتّ برهة مرت علي اثناءها مر البرق الصور التي تراءت لي على سطح غطاء الساعة وفي وميض اشعة شمس الظهيرة : ماجي فتاة البلادبوم وماجي كونتس هارتسموث اف بيري ... واوسكار بيري الطويل القامة ، الازرق العينين ، النبيل التقاطيع في المآزق التي رأيته فيها منذ برهة رأي العين ... ما هذا الذي يقوله صاحبي الملازم ممدوح عن كل الشخوص التي لاحت لي حية منذ قليل ؟... وقمت من مقعدي واتجهت ببصري الى ساعة الشكنة القفراء . وكان نور الشمس فيها لا يزال قويا محرقاً والشخوص فيها صريحة واضحة ، ومثلما كانت الصور التي رأيتها وانا اتأمل في ما هو منقوش على غطاء الساعة . حينذاك استدرت الى صاحبي الملازم وقلت له ، وكأني في ذاك كنت احدث نفسي:

— ولكني مع ذلك يا صاحبي اعرف اوسكار بيري . اعرفه جيداً يا ممدوح ...

ودون ان ادع له مجالا للتعليق او السؤال انطلقت احدثه في قضية ابل البدوي التي جاءت بي اليه في هذا الحر الخانق وفي هذه الطريق الطويلة الممتدة بين البلدة وثكنة حرس العشائر .

فهرست

	صفحة
هارب من الموت	٣
صدوع في الناي	١٦
ليلة الفندق	٢٤
الحب والابعاد	٣٠
الكمأة والكينين	٤٦
القفاز	٥٤
الظهيرة	٦٤
سال الدم	٧٧
ساعة الملازم	٨٧

obeikandl.com

obeikandl.com